

رابطة الأدب الإسلامي العالمية

٢

نظرات في الأدب

أبو الحسن علي الحسني الندوي

دار البشير
للنشر والتوزيع

رابطة الأدب الإسلامي العالمية

مكتب البلاد العربية

(٢)

نظرات في الأدب

أبو الحسن علي الحسني الندوي

دار البشير
للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى رَابطَة الأدب الإسْلامي العَالميَّة

الطَّبْعَة الثَّانِيَة
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

٨١٠,٤
حسن	أبو الحسن علي الحسني الندوي
نظرات في الأدب/ أبو الحسن علي الحسني الندوي.
عمّـــان: دار البشير، ١٩٩٠.
(١٢٣) ص. - (رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ١)
ر. أ. ٧٤٤ / ١١ / ١٩٩٠.
١. الأدب العربي - نقد	أ. العنوان.
ب. السلسلـــة.
(تمـت الفهرسـة بمعرفـة المكتبـة الوطنيـــة)

رقم الإيداع لدى مديرية المكتبات والوثائق الوطنية ٧٤٤/ ١٠ / ٩٠
رقم الإجازة المتسلسل ٧٣٥ / ١٠ / ١٩٩٠م



مركز جوهرة القدس التجاري / العبدلي عمان - الأردن
هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢) فاكس: (٦٥٩٨٩٣) / تلكس: (٢٣٧٠٨) بشير
ص. ب: (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم: الدكتور عبد الباسط بدر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وآله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد شرفني سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي حين رغب إليّ بكتابة مقدمة لهذا الكتاب، وما سماحته في حاجة إلى من يعرفه للناس ولا كتاباته في حاجة إلى من يقدمها إليهم. وما أحسبه فعل ذلك إلا ليهب رابطة الأدب الإسلامي - التي أهداها الكتاب - مكرمة أخرى فيعهد إلى أحد أعضائها بكتابة سطور تكون بين يدي الكتاب، فيطوقها ويطوقني بالصنيع الجميل يضيفه إلى أياديه البيضاء السابقة. فالرابطة غرسة من غراسه الخيرة، ونسأل الله أن تؤتي أكلها غير بعيد.

ولقد قرأت الكتاب قبل أن تدور به آلات الطباعة، ورأيته يتميز بميزتين نادرتين:

الأولى: أنه نتاج قلم يحمل في تكوينه ثلاث سمات متكاملة متداخلة: الأدب والفكر والدعوة إلى الله.

الثانية: أنه في مجمله كتاب تنظير وتقعيد، أقرب إلى أن يكون بيان مبادىء للأدب الإسلامي، يؤصل بشكل مباشر وغير مباشر مجموعة من الأعراف الأدبية والنقدية.

وأما الميزة الأولى: فهي نادرة في عصرنا هذا بالذات. صحيح أن كثيرين يجمعون بين الأدب والفكر ـ فمن خصائص عصرنا تداخل الأدب والفكر إلى حد التلاحم ـ، وكثيرين يجمعون بين الأدب والدعوة إلى الله، فلا يخلو بلد إسلامي من أدباء إسلاميين، وغير قليلين من معاصرينا يجمعون بين الفكر والدعوة إلى الله... ولكن الذين يمسكون الخيوط الذهبية الثلاثة: الأدب والفكر والدعوة، في آن واحد قليلون جداً في عصرنا هذا، منهم محمد إقبال وسيد قطب وصاحب هذا الكتاب.

لقد عرفت المجتمعات الإسلامية في شبه القارة الهندية ومعظم الدول العربية وتركيا وأوروبا وأمريكا الشيخ أبا الحسن داعية إلى الله، يسافر إليهم بين الحين والحين، رغم السن والمرض، ويخاطبهم في قضاياهم الصعبة: يشخص الأدواء ويرسم الحلول، فأحبوه ووثقوا به، وتزاحموا للقائه. وقد لمست بنفسي آثار دعوته في شبه القارة الهندية، في مدنها وقراها، وبين طلاب العلم والمنغمسين في الحياة اليومية. ورأيت طلابه في جامعة (ندوة العلماء) التي يديرها يتخذون من اسم الجامعة لقباً يضيفونه إلى أسمائهم، فيتسمى الواحد منهم بـ(الندويّ) تشرفاً وتيمناً، ورأيت المنغمسين في الحياة اليومية، تجاراً وصناعاً وعمالاً، يصرون على تطبيق الإسلام في حياتهم الشخصية، ويبذلون في سبيله ما يبذلون، وسط بحر متلاطم من الهندوس والبوذيين والسيخ والملل والنحل التي تضج بها «بلاد العجائب». ولمست آثار دعوته خارج بلاده، ولا أنسى أياماً أكرمني الله فيها بصحبته في تركيا، كان مضيفوه لا يجدون وقتاً ولا مكاناً يتيح له لقاء الأعداد الكبيرة التي سعت إلى لقائه، ويعتذرون لجمعيات وهيئات وجامعات لضيق وقته وتعبه الشديد، حتى عتب عليهم من عتب، وخاصمهم من خاصم. وفي

اللقاءات القليلة التي عقدت غصت القاعات بالحضور قبل موعد الاجتماع، ووقف عدد كبير خارج الأبواب ينصتون إلى مكبرات الصوت، . . يومها قرأت في عيون الناس محبة عميقة، وتقديراً عالياً لا يتأتّيان إلا لدعاة صدقوا الله، فزرع الله في قلوب الناس محبتهم وتقديرهم.

وشهدت بعض لقاءاته بالطلاب والمثقفين في وقت أضنتهم فيه المواجهة الشرسة مع المدنيّة الغربية وأذيالها، وأدمتهم مطاردة الطغاة، فتزلزلت روحهم المعنوية، وخبت طموحاتهم، ورأيته يغرس - بعناية المزارع الخبير - في أعماقهم الشعور بعزة المسلم وتفوقه العقدي والحضاري، ورأيت كيف تتحول الزلزلة إلى ثقة راسخة، والآلام إلى مصابرة عالية، والجراح إلى إصرار على مواصلة الطريق.

ومثلما عرفه الناس داعية، عرفوه مفكراً إسلامياً فذاً، يعي مشكلات عصره وقضاياه، ويتلمس ببصيرة المؤمن الحصيف حلولها. فمنذ أكثر من ثلاثين عاماً طلع عليهم بكتابه القيم «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ووجدوا فيه رؤية دقيقة لعطاء الإسلام، تبصر من خلف غيوم الضعف والتخلف القوة الحقيقية للإسلام، وتتحدث - رغم المرارة والإحباط - عن إمكاناته الهائلة والفجوة المخيفة التي تحدثها غيبته عن العالم. . . وتوالت كتاباته بعد ذلك حتى تجاوزت خمسة وسبعين مؤلفاً، وخاطبت شرائح المجتمع الإسلامي كلها، وأولت الحكام والمثقفين والطلاب والعرب عناية خاصة، وتحدثت عن طاقاتهم الكبيرة وما يمكن أن تفعله في إعادة القيادة الحضارية للمسلمين.

وأما الجانب الأدبي في شخصية أبي الحسن فأحسب أن قليلاً من الناس يعرفون تفاصيله، غير أنني موقن أن الحديث عنه لن يكون مفاجأة لمن قرأوا كتبه، فلا بد أنهم أحسّوا به في كتاباته، ولمسوه في ألفاظه

المنتقاة، وعباراته الرشيقة، ولا بد أنهم سيحسون به أكثر وأكثر في كتابيه: «روائع إقبال» و «مختارات من أدب العرب». فالأول: عرض أدبي بديع لعدد من دواوين الشاعر المسلم محمد إقبال يظهر بعض جوانب الإبداع والتألق فيها، والثاني: مختارات من عيون الأدب العربي ـ قديمه وحديثه ـ تسكب الجمال بين يديك وتقدم لك أطيب الطيب، فتكشف عن ذوق مرهف عند من اختارها، وحساسية عالية للبيان الساحر، وإدراك دقيق لمواطن الجمال فيه.. فضلاً عن الثقافة الواسعة والحس النقدي الرفيع... وحسبك بهذه الصفات دلالة على الموهبة الأدبية العالية، ألم يقل النقاد عن أبي تمام: إنهُ في مختاراته أشعر منه في شعره؟.

ولا شك أن من يسمع حديثه في مجالسه، وخطاباته المرتجلة في المؤتمرات والحشود لا يخطىء تلك الصفات. فكلماته بليغة دائماً، تخرج من قلبه وتحمل الفكرة بطريق مختصر، وتدعمها بشواهد مناسبة من القرآن الكريم والحديث النبوي ونوادر الشعر وطرائف الأقوال، فتصب في وجدان السامع وتملأ قلبه.

ولقد عرفت في شخصيته الأدبية ملامح متميزة عندما حضرت الندوة العالمية الأولى للأدب الإسلامي التي عقدت في لكهنو عام ١٤٠١ هـ، وشهدت بعض مجالسه الخاصة، يومها رأيت ـ ورأى الحضور ـ فهمه العميق المتميز للأدب وسمعنا آراءه في طبيعة الأدب ووظيفته، وتقويمه للأدب العربي المعاصر، واستوقفتنا نظراته النافذة وإدراكه لدقائق المشكلات، وسمعناه يتحدث عن الأدب العربي المغترب لا في الغرب، بل في الشرق، حيث استوطن منذ قرون طويلة، واستطاع أن يعيش مدة طويلة، ورأينا المعرض الذي وجه لإقامته لعرض الإبداع العربي في شبه القارة الهندية، ودهشنا لوجود هذا

القدر من الإبداع العربي منذ القرن الهجري الثاني إلى وقتنا المعاصر في أرض لا يتكلم أهلها العربية، وخجلنا من جهلنا به وتقصير دراساتنا العامة والمتخصصة، التي لم تصل إليه ولم تسمعنا شيئاً عنه.

يومها عرفت، وعرف من معي، أيَّ أديب هذا الرجل!: أديب يبدع في كتاباته ومختاراته وأحاديثه، وأديب يحنو على التراث العربي في واحاته النائية، فيجمعه ويرعاه، ويكلف المجمع العلمي في جامعته أن يقوم ـ بقدر ما تسمح به إمكاناته المحدودة ـ بتحقيقه ونشره وتعميمه على المدارس الإسلامية في الهند. ثم يكتب معرِّفاً به... ولا ينهض بهذه الأعباء إلا من عرف قيمة الكلمة الطيبة، وأدرك موقع البيان في الحياة الإنسانية، وملأ قلبه بحب عميق للأدب العربي..

لقد تجمعت في أبي الحسن صفات الأديب الإسلامي العالمي، فهو أديب في العربية وأديب في الأردية والفارسية، وكأنما وضع الله فيه هذه السمات ليكون الرجل الذي ننتظره ليتعزز به الأدب الإسلامي، وليجد من يرعاه في عصر القوميات الضيقة، ومحاولات فصل الدين عن الأدب والفكر والسياسة والاقتصاد وجوانب الحياة العملية.. فقد احتضن هذا الرجل ـ بحماسة المؤمن الصادق ـ أول تجمع للأدباء الإسلاميين على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم، وظهرت برعايته أول هيئة أدبية إسلامية، لا في العصر الحديث وحسب، بل وفي تاريخ الشعوب الإسلامية كله.. فما أعرف في هذا التاريخ الطويل العريض تجمعاً للأدباء يلتقي فيه الهندي والعربي والتركي والأندنوسي على مفهومات واحدة ومنهج عملي موحّد.. ولئن كانت الروابط والاتحادات والجمعيات الأدبية بدعة حديثة في العالم كله، فإنها لم تعرف تجمعاً للأدباء الإسلاميين قبل أن يحتضن أبو الحسن رابطة الأدب الإسلامي ويرعاها.

ماذا يعني هذا كله؟.. وهل ستتحول مقدمتي إلى قصيدة مديح لأبي الحسن؟.

إن كل من خبر أبا الحسن يعلم أنه أزهد الناس في المديح... يذوب خجلاً إذا أسمعته إياه، ويستغفر الله إذا كررته.. ومن ير بيته ومكتبه ومنازله في سفره يدرك كيف راض أبو الحسن نفسه على التواضع والزهد بما في أيدي الناس وألسنتهم. وإني ـ وإن كنت أشهد بصفات رأيتها ولمستها ـ أسعى لأصل إلى آثارها في الكتاب الذي أقدم له. فسوف يرى القارىء ـ كما رأيت ـ آثارها في جملة «النظرات» التي حملتها الصفحات، وفي الأسلوب الرفيع الذي يشد القلوب ويربطها بكل سطر وفقرة، فما تكاد تبدأ بقراءة الفصل حتى تجد نفسك تجتاز الصفحة، لتستقر مع نهايته وقد أعجبت بما تقرأ.. وسيزداد إعجابك عندما تعلم أن الكاتب ـ وإن كان عربي المحتد ـ نشأ في بيئة غير عربية، ولم يبدأ بتعلم العربية إلا بعد أن جاوز العاشرة من عمره، وأن لغة حياته اليومية ليست العربية... وستتساءل: كيف اكتسبت كتاباته العربية فصاحة عالية تهز النفوس؟.

وسيجد القارىء آثار تلك الصفات أيضاً في الأفكار الجديدة التي يطرحها، والمفهومات التي تتراءى وراءها تجارب عميقة وفراسة عالية، وسيلمسها في صدق التوجه ونبل المقاصد، وبراءة العرض من الادعاء والاستعلاء.



وأما المَيزة الثانية للكتاب فهي أنه ـ في مجمله ـ كتاب تنظير وتقعيد. وهي ـ ولا شك ـ نادرة أيضاً. فكتب التنظير والتقعيد قليلة في عصرنا وفي كل عصر، لأنها تقتضي قدرات خاصة وجهوداً عالية.

وكما قلت في مطلع المقدمة: إن «نظرات» أبي الحسن توشك أن تكون بيان مبادىء للأدب الإسلامي، أو لبعضه على الأقل. ذلك أن القارىء يخرج من الكتاب بعدد من القواعد والأحكام حول: مفهوم الأدب وطبيعته، والموقف من فصوله المنسية، وآفاق الأدب الإسلامي وبعض خصائصه. فلنمضِ في جولة سريعة نستعرض فصول الكتاب ومحتوياتها:

يضم الكتاب بين دفتيه ثمانية فصول تجمعها ثلاثة محاور هي: مقاييس للأدب ونقده، وصفحات مجهولة من الأدب العربي، وآفاق عالمية للأدب الإسلامي.

وأما المحور الأول فيشغل أربعة الفصول الأولى، ويدلك عليه عنوان الفصل الأول، وهو «نظرة جديدة إلى التراث الأدبي العربي». وهو كذلك بحق. فأبو الحسن في هذا الفصل يرفض أن يكون الأدب «صناعة تقليدية»، ويرفض أن يقتصر على حياكة المداحين والمتملقين والمتحذلقين، ويقرر أن الأدب كل تعبير جميل صادق عن أحداث هزّت الوجدان. لذلك لا يصح أن نحتبس في دواوين الشعراء المعروفين وصفحات الكتاب المتفرغين، وعلينا أن ننقب عن نصوصه الجميلة في كتابات أخرى لم تقصد تحبير الكلام وتنميقه، إنما قصدت نقل حدث أو فكرة أو إحساس بصدق كامل.. وأي شيء يكون الأدب غير هذا؟.

ويقدم أبو الحسن دليله الحاسم: نصوصاً رائعة من كتب الحديث والسيرة والمغازي والتاريخ، ويقف وقفات جمالية دقيقة على مقاطع منها، تحس معها أنه يحصي نبض الكلمات ويلمس حرارة العبارة وينقلها إليك في أقوى صيغ التأثير.

وهذه ـ فيما أحسب ـ نظرة جديدة للأدب، فتاريخ الأدب الذي درسناه ودرّسناه يقتصر على إبداع الشعراء «الممتهنين» والكتاب «المحترفين»، ولا يبلغ هذه الآفاق الواسعة، ولا يصل إلى تلك المضمونات الإنسانية الحقيقية. وهذه النظرة تفتح الباب واسعاً لتاريخ جديد يعيد تقويم الأدب في كل عصر، ويعيد صياغة الأحكام على رفعته وانحداره، وقد يغير فيها الشيء الكثير..

ويأتي الفصل الثاني امتداداً لنظرة الفصل الأول وتطبيقاً لموازينه على نصوص كريمة عظيمة، هي من أصدق الأدب رواية وفائدة ومتعة، فلئن اتفقت مذاهب الأدب على أن الأدب يقدم «شيئاً» للإنسان، قد يكون فائدة، وقد يكون متعة فنية.. فإن نصوص الحديث النبوي تقدم «كل شيء» للإنسان، تقدم البناء الفكري والسلوكي والذوقي، وتقدم المتعة الجمالية في البيان الساحر، لذلك عمد أبو الحسن إلى نصوص الحديث الشريف فبين أبعادها الأدبية وعطاءاتها البلاغية وآثارها النفسية والاجتماعية، ونبه إلى جوانب لا ينتبه إليها إلا متأمل ذواقة هدى الله بصيرته إلى دقائق الأمور.

ويأتي الفصلان الثالث والرابع مراجعة لفنون أدبية محددة هي: أدب التراجم والتقديمات والرحلات. وهي أيضاً مراجعة نقدية، تعيد النظر في طبيعة هذه الفنون وصفاتها الرئيسة. وقد دأب الدارسون على تقديم كل من هذه الفنون بتعريفات محددة وعبارات تبين طبيعتها ووظيفتها، فأدب التراجم ـ فيما قرأنا عنه ـ عرض لحياة أشخاص متميزين يهتم برصد الأحداث الكبيرة فيها وآثار المترجَم له، غير أن أبا الحسن يضع شروطاً لمن يتجرد له، يستنبطها من الصفات التي يريدها لهذا الفن... ففضلاً عن المعرفة الواعية الناقدة، والقدرة على البيان، والدقة والأمانة والشعور بالمسؤولية، يشترط في كاتب التراجم وجود

«الدافع النبيل» أي أن فن التراجم لا بد أن يرتبط بدافع نبيل ويصدر عنه. وينبه المترجمين إلى ضرورة أن يدركوا أن للكلمات «درجة حرارة وبرودة» وأن عليهم أن يحسوا بها، ويحسنوا توظيفها.. وهذه لمحات ذكية يدركها من عايش هذا الفن طويلاً وتعمق فيه، وهذا جانب جديد في شخصية أبي الحسن وتراثه العائلي نكتشفه عندما نعرف أنه نشأ في بيئة هوايتها التراجم والتاريخ، فوالده مؤلف أكبر موسوعة في ترجمة رجال الهند المسلمين، وجدّه سبق إلى وضع موسوعة بالفارسية.

وأما أدب الرحلات فيضع أبو الحسن يده على سمات مهمة فيه، فهو ينبه إلى أهمية النظرة الشاملة إلى المجتمع الذي يكتب عنه الرحالة، وإلى ضرورة التسجيل المباشر للأحداث والمشاهدات لرصد المشاعر الحقيقية والانطباعات التي تلد فجأة وتموت بعد حين، والخواطر التي لا يعيدها التذكر، ويقف عند قضية يخالف فيها كثيراً من كتاب الرحلات ومنظّري هذا الفن الأدبي، هي: ذات الأديب ومكانها في أدب الرحلات. فيرفض أن ينحّي الأديب فكره ومشاعره وعقيدته ويتحول إلى آلة تصوير «باردة»، ويوجهه إلى أن يسكب ذاته في تعليقات ذكية وتحليلات صادقة تستحضر العاطفة وتملأ الوجدان. وقد طبق أبو الحسن ذلك في كتابه «مذكرات سائح في الشرق العربي» وأثبت أن تدخل الأديب بالتعليق والتحليل يحول العمل من الأداء الجامد إلى عرض يضج بالحياة والأحاسيس والأفكار.

بعدها يبدأ المحور الثاني في الكتاب. وهو محور يفاجىء القارىء كما فاجأنا حين سمعناه أول مرة في الندوة العالمية الأولى للأدب الإسلامي عام ١٤٠١ هـ. فقد قرأنا عن الأدب العربي في الأندلس، وكتب عنه الدارسون مجلدات تملأ مكتبة واسعة، وقدمت فيه رسائل ماجستير ودكتوراه..

وقرأنا عن الأدب العربي في المهجر، ومنحناه ما يقارب ـ أو يفوق ـ اهتمامنا بالأدب الأندلسي.

ولكننا لم نقرأ قط عن الأدب العربي في شبه القارة الهندية، ولم نكتب كتاباً عنه. لذلك سيكون هذا الفصل مفاجأة مفرحة ومؤلمة للقراء والدارسين وأساتذة الجامعات، مفرحة إذ يكتشفون واحات نائية خصيبة للغة العربية وأدبها قديماً وحديثاً. هذه الواحات هي «مدرسة شبه القارة الهندية العربية والأدبية» التي تحدث عنها أبو الحسن في الفصل الخامس. ومؤلمة إذ ينبت أمامهم سؤال موجع: أيبلغ بنا التهاون بتراثنا أن نغفل عن سفر كامل من أسفار التراث العربي؟ وهل هو السفر الوحيد الذي غفلت عنه الدراسات ونسيه الدارسون؟ أليس في بيئاتنا الإسلامية المنتشرة من أقصى أندونوسيا إلى أعماق إفريقيا واحات أخرى للعربية قد تعطر تاريخنا الأدبي واللغوي بزهور نادرة؟.. ومن يدري؟ فقد تكون فصولاً جديدة ذات خصائص تميزها عما في بلادنا. لقد فرحنا بعطاء جماعات هاجرت إلى الأمريكتين وحافظت على هويتها وعواطفها مدة لا تبلغ القرن الواحد، وملأنا مناهج الدراسة ـ من الابتدائية إلى الجامعة ـ بنصوص من إبداعاتها، وقلنا الكثير عن محافظة رجالها على لغتهم ووجدانهم العربي.. ولو فتشنا عن امتداداتهم اليوم لوجدناها قد انتهت أو شارفت على الانتهاء... فهل من العدل أن نسكت عن بيئة أدبية لغوية كاملة حافظت على وجدانها العربي المسلم قروناً متطاولة، وما زالت امتداداتها قائمة حتى اليوم؟ وهل من خدمة العربية وآدابها أن نغفل عن تلك المناجم الغنية؟.

إنها دعوة مفتوحة للمؤسسات الثقافية، في البلاد العربية بخاصة أن تستفيد من هذه «الشرارة» التي أطلقها أبو الحسن، فنوقد بها عزائمنا، ونعقد دراسات جادة عن البيئات الأدبية واللغوية العربية

المنسية، نتتبعها حيثما كانت، ونستعين بأهلها، ونعكف عليها دراسة وتقويماً نبحث عن سر بقائها قروناً طويلة رغم عوامل التذويب والضياع، وخلافاً للنواميس المعروفة. فإذا كشفنا السر جعلناه عاملاً من عوامل خلود الأدب في الحياة الدنيا، ورفدنا به إبداعنا المعاصر، أو جعلناه في وصيتنا إلى من خلفنا كي يحسنوا استثماره... ولعل رابطة الأدب الإسلامي، بعالميتها المميزة، تأتي في مقدمة من يقع على كواهلهم عبء هذا العمل المضني.

ويأتي المحور الثالث ليعلن أن الأدب الإسلامي ذو آفاق عالمية، وليعرض جزءاً من هذه الآفاق هو «المدرسة الأدبية الإسلامية الهندية». وهذه مدرسة أدبية إسلامية غير عربية، لغتها لغة الثقافة والأدب في تلك البلاد: الأردية والفارسية، ولكن نبضها إسلامي ومشاعرها إسلامية وقضاياها قضايا المسلمين..

وحديث أبي الحسن عن هذه المدرسة يؤكد أن الأدب الإسلامي عالمي، يستمد عالميته من عالمية الإسلام فيستوعب آداب الشعوب الإسلامية كلها.

صحيح أن اللغة العربية هي لغة الأدب الإسلامي الأولى، وأن الحلم الكبير لدعاته ـ بل ولكل مؤمن ـ أن تكون لغة المسلمين جميعاً. ولكن، ونحن على أعتاب الحلم لا يجوز أن نغفل عن الواقع، فكثير من الشعوب الإسلامية تتكلم لغات محلية خاصة، وتكتب بها، وتعيش حياتها الثقافية بمفرداتها، وتعبر عما يجيش في صدور أبنائها بألفاظها وعباراتها. ومن التجنّي أن نتجاهل هذه الحقيقة أو نتجاوزها. وقد ظهر في هذه الأمم أدباء مبدعون امتلأت وجداناتهم بالإسلام، وتفجرت قرائحهم بعطاءات مدهشة، واستطاعت قصائدهم وقصصهم ومسرحياتهم أن تهز شعوبهم، بل إن بعض إبداعهم تجاوز خارطة

بلادهم إلى آفاق عالمية، فتُرجم إلى لغات عدة، وحظي بإعجاب المتذوقين والدارسين، وليس بعيداً عنا محمد إقبال وما كتب عنه بالإنجليزية والألمانية. .

إذن ثمة جناح آخر للأدب الإسلامي يتمثل في آداب الشعوب الإسلامية غير العربية، وثمة عطاءات أدبية عظيمة فيها، لا يصح أن تبقى بعيدة عن مثقفينا ومتذوقي الأدب في بلادنا. فقد تجاوزت الثقافة الأدبية في العالم كله حدود اللغات والجنسيات واهتمت الساحات الأدبية في كل بلد ـ بما في ذلك بلادنا ـ بآداب الشعوب الأخرى، وقامت مجلاتنا ومؤسساتنا الثقافية بترجمة نصوص كثيرة من آداب الشعوب الأوروبية والأمريكية خدمة «للثقافة» وأداء «لرسالتها»! . . فكيف بنا ونحن نقف على آداب شعوب تجمعنا بها عقيدة واحدة وصلات تاريخية راسخة وآلام وآمال مشتركة؟ . . لقد وضعنا بين أيدي قرائنا آلاف الصفحات عن أدباء إنكلترا وألمانيا وفرنسا وروسيا وأمريكا ودول شرقية وغربية أخرى تحت عنوان «الثقافة» وبهدف التعرف على العطاء الإنساني في ألوانه المختلفة، فهل يجوز لنا أن نحجب عنهم عطاءً أثّر في حياة ملايين المسلمين من إخواننا، وحظي بإعجاب الدارسين والنقاد في أنحاء شتى من العالم؟ أليس من الغفلة أن يجدَّ أصحاب الاتجاهات الوافدة من الشرق والغرب في ترجمة الأدب الذي ينتمي إلى اتجاهاتهم وكتابة عشرات الكتب عنه حتى نتصور أنه صورة لأدب تلك الأمم. . . ويغفل أصحاب التوجه الإسلامي الصادق عن أدب إسلامي بديع يمثل حياة تلك الشعوب ووجدانات أبنائها؟ .

لقد مر بنا وقت كنا نحسب فيه أدب ناظم حكمت الممثل الحقيقي للأدب التركي، والمجسِّد الصادق لتطلعات شعبه المسلم، فلما طلعت علينا الدراسات المنهجية الصحيحة، واحتككنا بالساحة

الأدبية في تركيا عن قرب عرفنا أن ناظم حكمت صوت لاتجاه واحد وضيق، يكاد يكون نشازاً في نسق الأصوات المبدعة هناك، عرفنا محمد عاكف: الذي أنشد الشعب التركي قصائده في أشد محنه، وتغنى بها في جهاده ضد قوات الحلفاء، ومسح آلامه على توقيعاتها في محنة العلمانية، وما زال يتغنى كل يوم بجزء من رائعته «نشيد الاستقلال» الذي أصبح النشيد القومي الرسمي لتركيا. وعرفنا «نجيب فاضل» المبدع المدهش الذي كان مدرسة كاملة في الشعر والمسرح، وعرفنا سيزائي قره قوج ومصطفى مياس أوغلو وعلي نار... وأعداداً أخرى من الأدباء يجسدون بحق واقع الشعب المسلم في تركيا وتطلعاته.

والأمر نفسه في شعوب إسلامية أخرى، فلولا شهرة «محمد إقبال» العالمية التي فرضت نفسها على آداب كثيرة لما عرفنا شيئاً عن أدب الشعب المسلم في شبه القارة الهندية، ولظننا أن «طاغور» وحده صوت ملايين الناس هناك..

وهكذا يفتح لنا أبو الحسن باباً آخر في الأدب الإسلامي ما زالت دروبه بكراً وما زالت دراساته ميداناً واسعاً للدارسين، ويقدم نماذج لما في ذلك الميدان، فيعرض جانباً من أدب جلال الدين الرومي، وهو جانب تراثي، وآخر على أبواب قرننا الميلادي هذا هو أدب محمد إقبال. وكلا العرضين متميز في ملامحه وأهدافه. فالأول يتتبع ملامح إنسانية دقيقة هي: الحب في تساميه نحو المطلق وتوجهه إلى مقر علوي يلوذ به، وعالم القلب الذي لا يسافر فيه إلا أصحاب القلوب الغنية، وقيمة الإنسان، هذه قضية كبيرة في الآداب بعامة وفي الأدب الإسلامي بخاصة. فالإنسان في الأدب الإسلامي قيمة لا تعلو عليها إلا قيمة جلال الخالق عزّ وجلّ، وقد أبدع الرومي في عرض هذه القضايا بلغة

القلب والعاطفة. . . وأبدع أبو الحسن بتقديم هذا الجانب من شعر جلال الدين الرومي.

وأما العرض الثاني فهو تقويم لرسالة الشاعر محمد إقبال، وتوضيح لمضمونات أدبه، ورسالته ـ بمضموناتها ـ جزء من رسالة الأدب الإسلامي ومضموناته بعامة. وقد بين لنا أبو الحسن الرسالة والمضمونات: فالأدب فيها كائن حي ينبع من أعماق الوجدان ويحمل لهب المشاعر ليوقد في صدور الآخرين نار الحيوية والإبداع، ويحثهم على بناء شخصية إسلامية متكاملة، وحياة مثالية رائعة. . فكل ما قاله إقبال وقدمه لنا أبو الحسن سوابق تؤسس أعرافاً وأحكاماً أساسية في الأدب الإسلامي ونقده.

وهكذا تتكامل المحاور الثلاثة لتعرض «نظرات» رائد من رواد الأدب الإسلامي في قضايا إسلامية في الأدب والنقد هي: مفهوم الأدب وطبيعته وحدوده، وتوجه الأنظار إلى المناجم الغنية المهملة للعربية وأدبها، والآفاق العالمية للأدب الإسلامي.

ولا شك أن هذه «النظرات» تنظير للأعراف والقواعد والمقاييس، وريادة في دروب الأدب الإسلامي ونقده.

ولا شك أيضاً أنه ليس من شأن الريادة أن تكون عملاً تفصيلياً يقف عند كل جزئية، ولا من شأنها أن تكون دراسة معمّقة لا تترك شيئاً لمن بعدها. أبداً. . . فالريادة خطوة جريئة في أرض جديدة، وسطر في صفحات لم تكتب بعد، ووثبة تفتح الباب المغلق ليدخل منه الآخرون، وهي قبل ذلك كله موهبة لا يحملها إلا من آتاه الله فراسة قوية، وإدراكاً دقيقاً لطبيعة الأشياء، وقبساً من نور يضيء مجاهل الطريق. . وقد ملك أبو الحسن ذلك، ففتح لنا في «نظراته» أبواباً لا باباً واحداً ـ وهذا من توفيق الله له ـ أملاً في أن ندخل منها ونعبّد الطريق. . .

وبعـــد:

فقد أثبت أبو الحسن أنه رائد في أكثر من ميدان: في العمل الدعوي المعاصر، وفي رعاية أول رابطة للأدباء الإسلاميين، وفي تنظير بعض قواعد الأدب الإسلامي، وفي الكشف عن مناجم مهملة لأدبنا العربي.

فيا أيها الرائد الكبير:

هديتك الغالية لرابطة الأدب الإسلامي رسالة كريمة تسلمناها ووعينا سطورها.. ولسوف نجعل المبادىء التي تضمنتها بعضاً من أعرافنا، وتوجيهاتها جزءاً من قواعدنا إن شاء الله، ونرجوه سبحانه أن يعيننا على تبليغها كل من يهمه أن ينتشر في مجتمعاتنا الإسلامية أدب يجسّد الشخصية المسلمة ويعززها.. ويرتقي بها، إلى أن تعود «خير أمة أخرجت للناس».

أثابك الله عن الإسلام والمسلمين خير ما يثيب به الدعاة المجاهدين، ومد في عمرك، وجعل أعمالك صفحات ناصعة في ميزان حسناتك.

د. عبد الباسط بدر
عضو رابطة الأدب الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

* نظرة جديدة إلى التراث الأدبي العربي[1] *

أصيب الأدب العربي بمحنة تصيب كل أدب، محنة تكاد تكون طبيعية ومطردة في الآداب واللغات، إلّا أن آجالها تختلف من أدب إلى أدب. فقد يطول أجلها في أدب أمة من الأمم، ويقصر في أدب أمة أخرى، ويرجع ذلك إلى عوامل عدة، أهمها: الأحوال الاجتماعية والسياسية، وحركات الإصلاح والتجديد، والبعث الجديد. فإذا توافرت هذه العوامل في الأمة قصر أجل المحنة، وإذا فقدت أو ضعفت طال أجل المحنة، وطال شقاء الأدب ـ والأمة كلها ـ بها.

هذه المحنة هي: تسلط أصحاب التصنع والتكلف على الأدب، الذين يتخذونه حرفة وصناعة، ويتنافسون في تنميقه وتحبيره، ليثبتوا براعتهم وتفوقهم، وليصلوا به إلى أغراضٍ شخصية محضة.

وقد يطول هذا الأمر ويستفحل، حتى يصبح الأدب مقصوراً عليهم، ومختصاً بهم، ويأتي على الناس زمان لا يفهمون فيه من كلمة «الأدب» إلا ما أثر عن هذه الطبقة من كلام مصنوع، وأدب تقليدي، لا قوة فيه ولا روح، ولا جدة لا متعة.

---

(١) قدم هذا المقال إلى «مجلة اللغة العربية» التي يصدرها المجمع العلمي العربي بدمشق (مجمع اللغة العربية حالياً)، حين اختير الكاتب عضواً مراسلاً فيه، وجعل مقدمة لكتابه «مختارات من أدب العرب».

ويطغى هذا الأدب الصناعي التقليدي على كل ما يؤثر عن هذه الأمة، وتحتوي عليه مكتبتها الغنية الزاخرة، من أدب طبيعي وكلام مرسل، وتعبير بليغ يحرك النفوس ويثير الإعجاب ويوسع آفاق الفكر، ويغري بالتقليد، ويبعث في النفس الثقة، ولا عيب فيه إلّا أنه صدر عن رجال لم ينقطعوا إلى الأدب والإنشاء ولم يتخذوه حرفة ومكسباً، ولم يشتهروا بالصناعة الأدبية، ولم يكن لهذا النتاج الأدبي الجميل الرائع عنوان أدبي، ولم يكن في سياق أدبي، وإنما جاء في بحث ديني، أو كتاب علمي، أو موضوع فلسفي أو اجتماعي، فبقي مغموراً مطموراً في الأدب الديني، أو الكتب العلمية، ولم يشأ الأدب الصناعي ـ بكبريائه ـ أن يفسح له في مجلسه ولم ينتبه له مؤرخو الأدب ـ لضيق تفكيرهم وقصور نظرهم ـ فينوّهوا به ويعطوه مكانه اللائق به.

إن هذا الأدب الطبيعي الجميل القوي كثير وقديم في المكتبة العربية، بل هو أكبر سناً وأسبق زمناً من الأدب الصناعي، فقد دُوِّن هذا الأدب في كتب الحديث والسيرة قبل أن يُدوَّن الأدب الصناعي في كتب الرسائل والمقامات، ولكنه لم يحظ من دراسة الأدباء والباحثين وعنايتهم ما حظي به الأدب الصناعي، مع أنه هو الأدب الذي تجلت فيه عبقرية اللغة العربية وأسرارها وبراعة أهل اللغة ولباقتهم، وهو مدرسة الأدب الأصيلة الأولى.

ونأخذ كتب الحديث والسيرة ـ كمثال لهذا الأدب الطبيعي ـ أولاً فنقول: إنها اشتملت على معجزات بيانية وقطع أدبية ساحرة، تخلو منها مكتبة الأدب العربي ـ على سعتها وغناها ـ وهو دليل على صحة هذه اللغة ومرونتها، واقتدارها على التعبير الدقيق عن خواطر ومشاعر ووجدانات وكيفيات نفسية عميقة دقيقة، ووصف بليغ مصور للحوادث الصغيرة، وهي الكتب التي حفظت لنا مناهج كلام العرب الأولين

وأساليب بيانهم، ولئن صح ما قاله الرقاشي: (إن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور، أكثر مما تكلمت به من جيد المنظوم، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره) فكتب الحديث النبوي تسد هذا الفراغ الواقع في تاريخ الأدب العربي وتنقل إلينا هذا الذخر الأدبي الذي اعتقِدَ أنه قد ضاع، وتمتاز أنها قد اتصل سندها وصحت روايتها فهي أوثق مصدر للغة العربية البليغة التي كانت سائدة في عهدها الذهبي الأول، وللأدب العربي الذي كان منتشراً في جزيرة العرب.

إن هذه الكتب تشتمل على روايات قصيرة وطويلة وكلها أمثلة جميلة للغة العرب العرباء التي كانوا يتكلمون بها ويعبرون فيها عن ضمائرهم وخواطرهم، ويجد دارس الأدب العربي فيها من البلاغة العربية، والقدرة البيانية، والوصف الدقيق، والتعبير الرقيق، وعدم التكلف والصناعة ما يقف أمامه خاشعاً معترفاً للرواة بالبلاغة والتحرِّي في صحة النقل والرواية، وللغة العربية بالسعة والجمال.

أما الروايات الطويلة فهي ثروة أدبية ذات قيمة فنية عظيمة، وهي التي تجلت فيها بلاغة الراوي العربي واقتداره على الوصف والتعبير والتصوير، وهي التي يطول فيها نفسه فيحكي حكاية يعبر فيها عن معان كثيرة وأحاسيس دقيقة، ومناظر متنوعة، فلا يخذله اللسان، ولا يخونه البيان، ولا يتخلف عنه مدد اللغة، وكأنها لوحة فنية منسجمة متناسقة قد أبدع فيها الفنان، أو صورة متناسبة قد أحسن فيها المصور كل الإحسان.

اقرأ معي حديث كعب بن مالك عن تخلفه عن غزوة تبوك، وهو موضوع دقيق محرج، يطلب منه الصراحة والاعتراف بالتقصير، والشهادة على النفس، ويطلب منه تصوير ذلك الجو القاتم العابس الذي عاش فيه خمسين ليلة، ويطلب منه تصوير الخواطر التي كانت تجيش

في صدره وتساور نفسه وهو يعيش في جفاء وعتاب ممن يحبهم وتربطه بهم العقيدة والعاطفة، لا يجد لذة في فراقهم ولا يرى في الدنيا عوضاً عنهم، وتصوير تلك الصلة الروحية والحب العميق الذي يربطه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم ربطاً وثيقاً محكماً، لا يحله العتاب والعقاب، ولا يضعفه إقبال الملوك عليه وتوددهم إليه، وتصوير ذلك السرور الذي غمره على أثر قبول توبته. ما أصعب هذا الموضوع، وما أكثره تعقداً ودقة! ولكنه ببلاغته العربية يتغلب على هذه المشكلات النفسية والأدبية، ويترك لنا ثروة نعتز بها.

اقرأ معي هذه القطعة الصغيرة التي أقتبِسُها من حديثه الطويل، وهو يحكي ما أحاط بهذه الغزوة العظيمة من ظروف وأجواء، ويصور تلك الحالة النفسية التي تخلّف فيها عن هذه الغزوة وما انتابه من التردد، ولم يكن التخلّف عن الغزوات من سيرته وعادته، وتمتع بما احتوت عليه هذه القطعة من القوة والجمال، وصدق التصوير وبراعة التعبير:

(وغزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه. فلم يزل يتمادى بي حتى اشتدّ الجِدّ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت! فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه آله وسلم فطفت فيهم،

أحزنني أني لا أرى إلّا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممن عذره الله من الضعفاء).

ثم انظر كيف يصوّر حالته وقد هجره المسلمون ونُهُوا عن كلامه، وكيف يعبِّر عن حالة المحب الذي هجره الحبيب ـ عقوبة وتأديباً ـ وهو يطمع في وده ويتسلى بنظراته، والذي لم يزده هذا العتاب إلّا رسوخاً في المحبة ولوعة وجوى، دعه يقص قصته بلسانه البليغ:

(ونهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج وأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرّك شفتيه بردّ السلام أم لا؟ ثـم أصلي قريباً منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ، فسلمت عليه فوالله ما ردّ عليّ السلام، فقلت: يا أبـا قتادة! أنشـدك بالله! هـل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدتُ له فنشدتُه فسكت، فعدتُ له فنشدتُه فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار).

واقرأ معي كذلك حديث الإفك الذي ظهرت فيه براعة السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها الأدبية وقوتها البيانية، وحسن تصويرها ووصفها للعواطف والمشاعر النسوية اللطيفة الدقيقة، وقد تجلت في هذه القطعة رقة عاطفة المرأة المحبة لزوجها، مع إباء الحُرّة الواثقة

بعفافها وطهارتها، المؤمنة بربها، وقد أضفى هذا المزيج الغريب من الرقّة والشدة، والعاطفة والعقل ـ زد إلى ذلك بيان عائشة التي تقلبت في أعطاف البلاغة العربية وانتقلت فيها من بيت إلى بيت ـ أضفى كل ذلك على هذه الرواية من الجمال الفنّي ما يجعلها من القِطَع الأدبية الخالدة في الأدب.

انظر كيف تصف ما تقوَّلهُ الناس وتحدثوا به وما شعرت به من تغير في وجه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، تذكر كل ذلك في حياء المرأة وأدبها من غير إبهام أو عَيّ:

(قالت عائشة: فـقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهراً والناس يفيضون في أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه آله وسلم فيسلم ثم يقول كيف تيكم؟ ثم ينصرف فذلك يريبني، ولا أشعر بالشر).

وتذكر توجعها من الخبر المُشاع فتقول: (فبكيتُ يومي ذلك كله، لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: وأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنوم ولا يرقأ لي دمع حتى إني لأظن أن البكاء فالق كبدي).

وتتقدم في الحكاية وتذكر كيف يسألها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عما قيل عنها ويعزم عليها الصدق، فلا تلبث أن تعتريها حمية المرأة العفيفة الفاضلة، ويقلص دمعها حتى لا تحس منه بقطرة، وترجو أباها وأمها أن يجيبا عنها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيمتنعان ويفضّلان السكوت حياءاً من رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم واستحياءاً من الدفاع عن قضية بنتهما، وهو الدفاع عن النفس، فتنبري للكلام القوي الصريح المبين ـ وهي البليغة الأديبة ـ وتتمثل بقول سيدنا يعقوب وتفوض أمرها إلى الله، وتتنزل براءتها من السماء فتطلب منها أمها أن تشكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتقوم إليه فتأبى ـ في دلال العفائف وأنفة المؤمن ـ أن تحمد إلاّ الله الذي أنزل براءتها من فوق سبع سماوات، وخلَّدَ طهارتها إلى آخر يوم يقرأ فيه القرآن ويؤمن به.

واقرأ كذلك حكايتها للهجرة النبوية، وذكرها لتفاصيلها وما وقع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبه رضي الله عنه في الطريق، ووصولهما إلى المدينة وكيف تلقَّاهما الأنصار، وفرحوا بقدوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكل ذلك مثال رائع للوصف الدقيق البليغ، والبيان القادر الوصاف.

وهنالك روايات أخرى طويلة النَفَس، ضافية البيان، تشتمل على غرر الكلام، وبدائعه الحسان، ومناهج العرب الأولين في كلامهم، كحديث صلح الحديبية، وحديث الإيلاء، وغير ذلك، كانت تستحق أن تكون في المكانة الأولى في دراساتنا الأدبية، ولكنها أفلتت من نظر المؤلفين والناقدين، لأنها لم تدخل في دواوين الأدب، ولأن تصورهم للأدب كان تصوراً محدوداً جامداً لا يعدو الصناعة.

ويلي الحديث كتب السيرة، فقد حفظت لنا جزءاً كبيراً من كلام العرب الأقحاح، ومثلت تلك اللغة البليغة التي كانت في عصور العربية الأولى وهذَّبها الإسلام ورقَّقها، واشتملت على قطع أدبية لا يوجد لها نظير في المكتبة العربية المتأخرة.

اقرأ في «سيرة ابن هشام» حديث حليمة ابنة أبي ذؤيب السعدية عن رضاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واقرأ فيها قصص

الاضطهاد والتعذيب، واقرأ فيها مغازي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وحروبه، واقرأ في كتب الحديث والشمائل وفي كتب التاريخ والسير أحاديث الوصف والحلية، تجد من القدرة الفائقة على الوصف والتعبير والبيان الساحر لدقائق الحياة وخوالج النفس وترى من اللغة النقية الصافية، واللفظ الخفيف، والتعبير الدقيق الرقيق، ما يطربك ويملؤك سروراً ولذة وثقة وإيماناً بعبقرية هذه اللغة، ورغبة في دراستها والتوسع فيها.

وهكذا صان الله هذه اللغة الكريمة الأمينة للقرآن من الضياع، وانتقلت ثروتها من جيل إلى جيل ومن كتاب إلى كتاب، حتى جاء دور التأليف والتاريخ في القرن الثالث والرابع، وحفظ لنا المؤرخون أمثال الطبري والمسعودي، والأدباء أمثال الجاحظ وابن قتيبة وأبي الفرج الأصبهاني، ثروة زاخرة من الأدب في كتبهم وحفظوا لنا تلك اللغة العذبة البليغة التي كان العرب الصرحاء يتكلمون بها في بيوتهم وعلى موائدهم وفي مجالس انبساطهم، وجاء منها الشيء الكثير في «كتاب البخلاء» للجاحظ، و«كتاب الإمامة والسياسة» لابن قتيبة، و«كتاب الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني، (على ضآلة قيمة الكتابين الأخيرين التاريخية)، و«روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» للبُسْتي، وكتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي، وهذه كتب التاريخ والأدب تمثل لنا العربية في جمالها الأول ونقائها الأصيل وسعتها النادرة.

ثم جاء دور المتكلمين المقلدين للعجم، ونبغ في العواصم العربية أمثال أبي إسحاق الصابي وأبي الفضل بن العميد والصاحب بن عبّاد، وأبي بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني، وأبي العلاء المعري، واخترعوا أسلوباً للكتابة والإنشاء هو بالصناعة اليدوية والوشي والتطريز، أشبه منه بالبيان العربي السلسال وكلام العرب الأولين

المرسل الجاري مع الطبع، وغلب عليهم السجع والبديع، وغلوا في ذلك غلواً أذهب بهاء اللغة ورواءها وقيَّدَ الأدب بسلاسل وأغلال أفقدته حرّيته وانطلاقه وخفة روحه وجماله.

وتزعَّم هؤلاء الأدب العربي واحتكروه وخضع لهم العالم العربي والإسلامي، لقوة نفوذهم وعلو مكانتهم تارة، وللانحطاط الفكري والاجتماعي الذي كان يسود العالم الإسلامي تارة أخرى، وأصبح أسلوبهم في الكتابة هو الأسلوب الوحيد الذي يُحتَذَى ويقلد في العالم الإسلامي.

وجاء أبو القاسم الحريري فألف «المقامات» ـ وهو أسلوب الكتابة المسجعة المختمر ـ وقد تهيّأت العقول لقبولها، فعكف عليها العالم الإسلامي دراسة وشرحاً وتقليداً وحفظاً، وتغلغلت في مدارس الفكر والأدب، وبقيت مسيطرة على العقول والأقلام أطول مدة تمتع بها كتاب أدبي، وما ذاك لفضل الكتاب، بل لأنه قد وافق هوى النفس وصادف عصر الجمود والعقم الأدبي في العالم الإسلامي.

ثم جاء القاضي الفاضل ـ مجدد أسلوب الحريري وبالأصح مقلده ـ وهو وزير أعظم دولة إسلامية في عصرها، وكاتب سِرّ أحبِّ سلطان في عهده، صلاح الدين الأيوبي قاهرْ الصليبيين ومعيد مجد المسلمين، فانتشر أسلوبه في العالم الإسلامي وحرص على تقليده الكُتّاب والمنشؤون في أنحاء المملكة الإسلامية.

وهكذا بقي أسلوب وحيد يتحكم في العالم الإسلامي ويسيطر على الأوساط الأدبية، وأصبح ما خلَّفه هؤلاء الكتاب المتصنعون من تراث أدبي هو المَعْنيّ بالأدب العربي، وجاء المؤرخون للأدب فاعتبروهم أئمة البلاغة وأمراء البيان وأصحاب الأساليب، وقدموا ما كتبوه وعرضوه للدارسين والباحثين، وقلد بعضهم بعضاً وتناقلوه، وأصبحت

كتب التاريخ والأدب نسخة واحدة، وأصبحت الكتابة صورة واحدة من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر، لا يستثنى منها إلاّ عبقريان اثنان، أولهما ابن خلدون، وثانيهما الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي[١] (م ١١٦٧ هـ).

وتناسى هؤلاء ما كتب غيرهم وانصرف الناس - حتى الباحثين منهم - عن ذخائر الأدب العربي الثمينة، ولم يفكر أحد في أن يبحث في التاريخ والسير والتراجم وفي مؤلفات العلماء عن قطع أدبية رائعة تتفوق - في قوتها وحيويتها، وسلاستها وسلامتها، وفي بلاغتها وجمال لغتها - على دواوين أدبية ومجاميع ورسائل أكبَّ عليها الناس وافتتنوا بها.

هذا وقد بقيت طائفة من العلماء - حتى في عصور الانحطاط الأدبي - غير خاضعين لأسلوب تقليدي في عصرهم، متحررين من السجع والبديع والصنائع والمحسنات اللفظية، يكتبون ويؤلفون في لغة عربية نقية وفي أسلوب مطبوع يتدفق بالحياة، إذا قرأه الإنسان ملكه الإعجاب، وآمن بفكرتهم وخضع لعقيدتهم ولما يقررونه، وهذه القطع التي طُوِيت في أثناء كتب علمية أو دينية فجهلها الأدباء وزهد فيها تلاميذ الأدب هي من بقايا الأدب العربي الأصيل، وهي التي عاشت بها العربية هذه السنين الطوال وهي التي يفزع إليها المتأدب المتذوق، وهي رياض خضراء في صحراء العربية القاحلة التي تمتد من عصر ابن العميد إلى عصر القاضي الفاضل إلى أن جاء ابن خلدون.

---

(١) اقرأ كتابه الفريد: «حجة الله البالغة»، واقرأ ترجمة مؤلفه في «نزهة الخواطر» الجزء السادس، طبع دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد (الهند)، وكتاب صاحب هذه المقالات: الإمام الدهلوي (الجزء الرابع من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» طبع دار القلم الكويتية).

إن ما كتبه هؤلاء العلماء، غير معتقدين أنهم يكتبون للأدب ولا زاعمين أنهم في مكانة عالية من الإنشاء، هو الذي يسعد العربية ويشرّفها، أكثر مما يسعدها ويشرفها كتابات الأدباء ورسائلهم وموضوعاتهم الأدبية، وأخاف لو أنهم قصدوا الأدب وتكلفوا الإنشاء لفسدت كتابتهم، وفقدت ذلك الرونق وتلك العذوبة التي تمتاز بها، وخسرنا هذه القطع الجميلة المليئة بالحياة، فقد التصقت بالأدب شروط وصفات وتقاليد هي المفسدة له، الطامسة لنوره، فلا بد فيه من السجع والصناعة ولا بد فيه من البديع والمحسنات اللفظية ولا بد من تقليد من يُعَدُّ في الطبقة الأولى من الأدباء، وأما الكتابات العلمية التاريخية والدينية فليست فيها هذه الالتزامات وهذه الشروط القاسية، لذلك تأتي أبلغ وأجمل.

ونرى الكاتب الواحد إذا تناول موضوعاً أدبياً وتكلف الإنشاء تدلّى وأسفّ، وتعسف وتكلف، ولم يأت بخير، وإذا استرسل في الكلام وكتب في موضوع علمي أو ديني أحسن وأجاد، هكذا نرى الزمخشري متكلفاً مقلداً في «أطواق الذهب» وكاتباً موفقاً بليغاً في مقدمة «المفصل»، وفي مواضع من تفسيره «الكشاف». ونجد ابن الجوزي غير موفق في كتابه: «المدهش» وكاتباً مترسلاً بليغاً في كتابه: «صيد الخاطر»، وظني أنهما كانا يعتبران أثريهما الأدبيين «أطواق الذهب» و«المدهش» من أفضل كتاباتهما الأدبية التي يعتمدان عليها ويفتخران بها، ولعل عصرهما صفق لهذين الكتابين «الأطواق» و«المدهش» أكثر مما صفق لكتاباتهما العلمية والأدبية والدينية، ولكن قاضي الزمان وحاكم الذوق قد حكما بالعدل، فليس اليوم للكتابين الأولين قيمة كبيرة، أما «صيد الخاطر» و«تلبيس إبليس»، و«المفصل» و«الكشاف» فهي جديرة بالبقاء وجديرة بكل اعتناء.

ليس السِرُّ في فضل هذه الكتابات العلمية والدينية وتأثيرها وقوتها

وجمالها هو التحرر من السجع والبديع وترسلها فحسب، بل السبب الأكبر هو أن هذه الكتابات قد كتبت عن عقيدة وعاطفة وعن فكرة واقتناع وعن حماسة وعزم، أما الكتابات الأدبية فقد كان غالبها يكتب بالاقتراح من ملك أو وزير أو صديق أو لإرضاء شهوة الأدب أو تحقيق رغبة المجتمع أو حبّاً للظهور والتفوق، وهذه كلها دوافع سطحية لا تمنح الكتابة القوة والروح ولا تسبغ عليها لباس البقاء والخلود ولا تعطيها التأثير في النفوس والقلوب، والفرق بينها وبين الكتابات المنبعثة من القلب والعقيدة كالفرق بين الصورة والإنسان، وكالفرق بين النائحة والثكلى.

ويذكِّرني هذا قصة رويناها في الصبا وهي: أن كلباً قال لغزال: ما لي لا ألحقك وأنا من تعرف في العدو والقوة؟ قال: لأنك تعدو لسيّدك وأنا أعدو لنفسي.

وقد كان هؤلاء الكُتّاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة أو يكتبون لأنفسهم، يكتبون إجابة لنداء ضميرهم وعقيدتهم مندفعين منبعثين، فتشتعل مواهبهم ويفيض خاطرهم ويتحرق قلبهم، فتنثال عليهم المعاني وتطاوعهم الألفاظ وتؤثر كتاباتهم في نفوس قرائها لأنها خرجت من قلب فلا تستقر إلّا في قلب.

أما هؤلاء المتصنعون فإنهم في كتاباتهم الأدبية أشبه بالممثلين، قد يمثلون الملوك فيتصنّعون أبهة الملك ومظاهره، وقد يمثلون الصعلوك فيتظاهرون بالفقر، وقد يمثلون السعيد وقد يمثلون الشقي من غير أن يذوقوا لذة السعادة أو يكتووا بنار الشقاء، وقد يعزّون من غير أن يشاركوا المفجوع في أحزانه، وقد يهنئون من غير أن يشاركوا السعيد في أفراحه.

بالعكس من ذلك اقرأ كتابات الغزالي في «الإحياء» وفي «المنقذ من الضلال» واقرأ خطب الشيخ عبد القادر الجيلي (رضي الله عنه) ما صحّ منها، واقرأ ما كتبه القاضي ابن شداد عن صلاح الدين، واقرأ ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الحافظ ابن قيم الجوزية في كتبهما، تر مثالاً رائعاً للكتابة الأدبية العالية يتدفق قوة وحياة وتأثيراً، وذلك هو الأدب الحيُّ الخليق بالبقاء، ولا سبب لذلك إلّا أنه كتب عن عقيدة وعاطفة.

وهنالك شيء آخر وهو أن الإيمان وصفاء النفس والاشتغال بالله والعزوف عن الشهوات يمنح صاحبه صفاء حس ولطافة نفس وعذوبة روح ونفوذاً إلى المعاني الدقيقة واقتداراً على التعبير البليغ، فتأتي كتابته كأنها قطعة من نفس صاحبها وصورة لروحه، خفيفة على النفس مشرقة الديباجة لطيفة السبك، بارعة في التصوير، لذلك كان من الأدب الصوفي ومن كلام الصالحين العارفين قطع أدبية خالدة لم تفقد جمالها وقوتها على مر العصور والأجيال، وترى من ذلك نماذج في كلام السادة: الحسن البصري، وابن السماك، والفُضيل بن عياض، وابن عربي الطائي، تُعدُّ من محاسن العربية، واقرأ ـ على سبيل المثال ـ الحوار الذي دار بين ابن عربي ونفسه وسجّله في كتابه «رسالة روح القدس».

إن هذه القطع الأدبية الدافقة بالحياة والقوة والجمال كثيرة غير قليلة في المكتبة العربية، إذا جمعت تكونت منها مكتبة، لكنها منثورة مبعثرة، مطوية مغمورة في أوراق كتب ومؤلفات لا تجدها في ركن الأدب والإنشاء في مكتباتنا العربية، ولا يذكرها المؤرخون للأدب في كتبهم، هذه القطع أصدق تمثيلاً للغة العربية وأدبها الرفيع ومحاسنه من كثير من الكتب المختصة بالأدب، ومن كثير من المجاميع والرسائل

والمقامات الأدبية التي تُعتَبر أساس الأدب وزهو العربية ومحصول العقول.

وهذه القطع هي التي تخدم اللغة والأدب أكثر مما تخدمها كتب اللغة والأدب، وهي التي تفتق القريحة وتنشط الذهن وتقوي الذوق السليم وتعلم الكتابة الحقيقية.

إن هذه القطع والنصوص منثورة كما قلت في كتب الحديث والسيرة والتاريخ وكتب الطبقات والتراجم والرحلات، وفي الكتب التي ألفت في الإصلاح والدين والأخلاق والاجتماع، وفي بحوث علمية ودينية، وفي كتب الوعظ والتصوف، وفي الكتب التي سجل فيها المؤلفون خواطرهم وتجارب حياتهم، وملاحظاتهم وانطباعاتهم ورووا فيها قصة حياتهم.

وهذه ثروة أدبية زاخرة تكاد تكون ضائعة، وقد جنى الإهمال على اللغة والأدب وعلى الكتابة والإنشاء وعلى التأليف والتصنيف وعلى التفكير، فحرمه مادة غزيرة من التعبير وباعثاً قوياً للتفكير.

مخطىء من يظن أن المكتبة العربية قد استُنفِدت وعُصِرت إلى آخر قطراتها، إنها لا تزال مجهولة تحتاج إلى اكتشافات ومغامرات، إنها لا تزال بكراً جديدة تعطي الجديد وتفجأ بالغريب المجهول، إنها لا تزال فيها ثروة دفينة تنتظر من يحفرها ويثيرها.

إن مكتبة الأدب العربي في حاجة شديدة إلى استعراض جديد وإلى دراسة جديدة وإلى عرض جديد.

ولكن هذه الدراسة وهذا الاستعراض يحتاجان إلى شيء كبير من الشجاعة وإلى شيء كبير من الصبر والاحتمال وإلى شيء كبير من رحابة الصدر وسعة النظر، فالذي يخوض فيها ليخرج على العالم بتحف أدبية

جديدة وذخائر عربية جديدة، ينبغي أن لا يكون ضيّق التفكير، جامداً متعصباً في فهمه للأدب، متعصباً لبلد أو لطبقة أو لعصر، تهوله ضخامة العمل، واتساع المكتبة العربية، أو يوحشه عنوان ديني، أو يمنعه ـ من الاختيار والدراسة ـ اسم قديم لا صلة له بالأدب والأدباء، يجب أن يكون حر التفكير، واسع الأفق بعيد النظر متطلّعاً إلى الدراسة والتجربة، واسع الاطلاع على الكنوز القديمة، يفهم الأدب في أوسع معانيه ويعتقد أنه تعبير عن الحياة وعن الشعور والوجدان في أسلوب مُفهم مؤثر لا غير.

إنني لا أزدري كتب الأدب القديمة ـ من رسائل ومقامات وغيرها ـ ولا أقلل قيمتها اللغوية والفنية وأعتقد أنها مرحلة طبعية في حياة اللغات والآداب، ولكنني أعتقد أيضاً أنها ليست الأدب كله، وأنها لا تحسن تمثيل أدبنا العالي الذي هو من أجمل آداب العالم وأوسعها، وأنها جنت على القرائح والملكات الكتابية، والمواهب والطاقات، وعلى صلاحية اللغة العربية ومنعت من التوسع والانطلاق في آفاق الفكر، والتعبير والتحليق في أجواء الحقيقة والخيال، وتخلفت بهذه الأمة العظيمة ذات اللغة العبقرية والأدب الغنيّ، فترة غير قصيرة. فخير لنا أن نعطيها حظها من العناية والدراسة ونضعها في مكانها الطبعي في تاريخ الأدب وطبقات الأدباء، وأن ننقّب في المكتبة العربية من جديد، ونعرض على ناشئتنا وعلى الجيل الجديد نماذج جديدة من الكتب القديمة للأدب حتى يتذوق جمال هذه اللغة وينشأ على الإبانة والتعبير البليغ، ويتعرّف على هذه المكتبة الواسعة ويستطيع أن يفيد منها.

قيمة الأدعية النبوية المأثورة
الأدبية والبلاغية والنفسية والاجتماعية*

إن الأدعية المأثورة تحتلُّ - بالإضافة إلى قيمتها الروحية وحقيقتها المعنوية - أعلى مكانة أدبية وأرفعها، وإنها درر الأدب اليتيمة، وآثاره النادرة الخالدة التي ينقطع نظيرها في المكتبات الأدبية البشرية بأسرها.

هناك رسائل شخصية قد نالت من نُقَّاد الأدب مكانة كبيرة، لأنها تحمل سذاجة وتتنزه عن التصنع، وتعبر عن عواطف القلب تعبيراً صادقاً، بيد أنه قد فاتهم أن يدركوا أن هناك نوعاً من الأدب يحمل من السذاجة والحقيقة ما لا تحمله الرسائل والكتابات، وتصبح هناك المصطلحات اللغوية بأنواعها هباءاً منثوراً حينما يصب فيها المتكلم عصارة قلبه، ويعبر لسانه عن القلب بأصح ما يكون وأصدق ما يتصور، ويستغني المتكلم عن الترحيب والتحبيذ، والإشادة والتقدير، ولا يحسب حساباً للسامع، بل يخاطب قلبه، ويتناجى مع مشاعره، ويتحدث مع عواطفه، هذا النوع من الأدب الرفيع هو «الدعاء» و«المناجاة».

الإخلاص والصدق والواقعية
من أهم عناصر الأدب:

إن من أهم عناصر الأدب الإخلاص والصدق، وهما اللذان ظل يتغافل عنهما معظم نقاد الأدب، واللذان يهبان الأدب روحاً وقوة وحيوية، ويجعلانه حقيقة أبدية خالدة. وقد اتسم «الدعاء» و«المناجاة»

بهذين العنصرين ما لم يتسم ـ ولا يمكن أن يتسم ـ به أي نوع من أنواع الأدب، فكيف إذا كان الداعي والمناجي رقيق القلب وجريح الكبد وله كل نصيبه من القدرة على التعبير عن ألمه بأنواع الأساليب؟.

إن الكلمات الصادرة عن لسانه ستكون ـ ولا شك ـ معجزة من الأدب، لأنها أفلاذ كبده، وقطع قلبه، ودموع عينيه. وسوف تملك القلوب، وتبكي آلاف البشر قروناً طوالاً، أما إذا كانت هذه الكلمات قد جرت على لسان تكرر عليه الوحي الإلّهي، وامتلك ناصية البلاغة وعنان الفصاحة، فلا تسأل عن تأثيرها وإعجازها!.

الدعاء الذي دعاه النبي ﷺ في الطائف:

تعالوا نلق نظرة على الأدعية التي أثرت عن رسول الله ﷺ في دواوين الأحاديث وكتب التاريخ والسير، ولننظر: هل يستطيع أحدنا ـ مهما بلغ تضلُّعه من الأدب، وبراعته في الفنون الأدبية والأساليب البيانية ـ أن يأتي ـ وهو يريد أن يبدي عجزه وضعفه، ويصور فقره واحتياجه، ويستجلب رحمة ربه، ويستمطر سحابة كرمه ـ بكلمات أشد منها تأثيراً، وأدقَّ منها دلالة على المعاني، وأكثر منها قلة في المباني، وأحسن منها وقعاً في النفوس وجذباً للقلوب وسحراً للأذهان والعقول.

تصور سفره ﷺ إلى الطائف، وما يحفُّه، وأرسِل النظر إلى قلب المسافر المتكسر، وقدميه المتضرجتين بالدم، واقرأ قوله في هذه البيئة الظالمة الخانقة:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، رب المستضعفين! إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملّكته أمري، إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات

وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن يحل بي غضبك أو ينزل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلّا بك»[1].

فهل تستطيع أن تأتي ـ وقد تكيفت نفسك بهذه الكيفية العجيبة ـ بكلمات أحسن منها وأوقع؟ أو هل تقدر مكتبات العالم الأدبية الغنية على أن تسعفك بألفاظ أكثر منها رشاقة، وأحسن منها صياغة؟!.

الدعاء الذي دعاه في ميدان عرفات:

وتصور كذلك ميدان عرفات، وما حواه من مائة وعشرين ألفاً من الداعين المبتهلين والخاشعين المنصتين، وهو يدوي بأصداء «لبَّيك اللهُمَّ لبَّيك» ويتجاوب مع أدعية الحجاج الكرام، وقد تجلت فيه صمدية الأحد الصمد، وعظمته وجبروته، ترى في هذا الحشد العظيم الكريم «رجلاً»، حاسراً عن رأسه، لابساً إحرامه ـ فداه أبي وأمي ـ يحمل على عاتقه مسؤولية البشرية جمعاء، ويشاهد عظمة الإلّه وكبرياءه، أكثر من كل من يستطيع هذه المشاهدة، ويطلع على عجز الإنسان وضعفه وعيّه أكثر من كل من يقدر على هذا الاطلاع، في هذا الجوّ الرهيب المهيب، يدوي بصوته الأرجاء، فيسمعه السامعون:

«اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سِرّي وعلانيتي، لا يخفى عليك شيء من أمري، وأنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق، المُقرّ المعترف بذنبي، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، فاضت لك عبرته وذلّ لك جسمه، ورغم لك أنفه، اللهم لا

---

(١) جاء هذا الدعاء في تاريخ الطبري بهذه الألفاظ. وقد أخرجه صاحب «كنز العمال» بتغيير يسير.

تجعلني بدعائك شقياً، وكن رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين ويا خير المعطين!»[1].

فهل يستطيع الإنسان أن يجد ـ لكي يُعبّر عن كبرياء الله وعظمته، ويعترف بعجزه وضعفه، وفقره واحتياجه وقلة حيلته وهوانه، ويثير رحمة ربه، ويستجلب كرمه ـ كلمات أكثر منها وقعاً، وأغنى منها إخلاصاً، وأشد منها جذباً للنفوس ونفوذاً في القلوب؟ أو هل يستطيع أحدنا أن يصور كيفية قلبه، وعجزه ومسكنته، بأحسن من ذلك وأدق منه؟ وايم الله إن هذه الكلمات لكفيلة بإثارة سحابة كرم الكريم الحقيقي، وكلما تكررها الأذهان ويجري بها اللسان تفيض العيون دموعاً، وتتراءى الرحمة الإلّهية مقبلة، فألف ألف صلاة وسلام على رحمة العالمين وسيد المعلمين، إذ إنه علَّم أمته هذه الأدعية الرائعة ذات الأثر البالغ والصياغة الدقيقة، وعرفنا كيف نقرع «باب الرحمة». اللهم صلِّ وسلّم عليه وعلى عترته بعدد كل معلوم لك.

الاعتراف بعجزه وضعفه:

ولكي يستميل الإنسان، الملك المقتدر، القوي الغني، القادر المطلق، السلطان العادل، ويستجلب رحمته، وعطفه وحنانه، لا سبيل إلى ذلك إلّا بالاعتراف بعجزه وضعفه، وعبوديته ونقصه، بأحسن ما يكون الاعتراف بأنه عبد الملك كابراً عن كابر، وجيلاً بعد جيل، فهو مملوك ابن مملوك... إلخ، وهو متسوّل على باب السلطان القديم، وربيب هذا النعيم العميم، والسلطان يملك نفسه وما له، وكل شيء بيده، إذاً فمن يرحم عبده ويواسيه من بعده؟ فلننظر: هل يمكن لأحد أن يأتي

(١) «كنز العمال» مروياً عن ابن عباس رضي الله عنهما.

بهذه المقدمة «اللازمة» بأحسن مما أتى به محمد رسول الله ﷺ يدعو ربه فيفيض لسانه بما يلي:

«اللهم! إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني وذهاب همي»[١].

التمثيل الصادق الجامع للحوائج البشرية:

إن حاجات الإنسان لا يأتي عليها الحصر، واختيارها صعب، واستقصاؤها أشق، إذاً فأي حاجة يسألها وأي حاجة يتركها؟ هذا شيء في منتهى الصعوبة، وغاية الحرج.

ولننظر في حاجاتنا، لو أتيح لنا فرصة سؤالها واستشباعها، لواجهتنا الصعوبة في السؤال، وأعقبها التلهف والأسف، ولكن انظر كيف عبر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن حاجيات الإنسان أدق تعبير، وكيف مثل الإنسانية كلها تمثيلاً صادقاً جامعاً شاملاً ـ إذا كانت هذه الإنسانية سليمة الطبع صحيحة الإدراك ـ:

«لا إله إلاّ الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين، أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، لا تدع لي ذنباً إلاّ غفرته، ولا هماً إلاّ فرجته، ولا حاجة هي لك رضى إلاّ قضيتها يا أرحم الراحمين»[٢].

---

(١) رواه الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنهما.

(٢) رواه الترمذي وابن ماجه عن عبد الله بن أبي أوفى.

ويقول في دعاء آخر:

«اللهم! أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر»[1].

الراحة التي لا تنتهي، والسرور الذي لا ينفد:

ما أحرص الإنسان على الراحة واللذة، غير أنه قصير النظر، فهو يطلب اللذة الفانية ويسعى للمسرة الزائلة، والنبي ﷺ يدرك ذلك فيعلم أمته من خلال أدعيته أن ما ينبغي أن يطلبه الإنسان هو اللذة الباقية، والراحة الدائمة، والمسرة في الحياة الآخرة، ولذة النظر إلى وجه الله الكريم، والشوق إلى لقائه، فيقول:

«اللهم! إني أسألك نعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بالقضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك»[2].

الحقائق الأخلاقية والدقائق النفسية
في الأدعية المأثورة:

إن الخلق الحسن أغلى نعمة بعد الإيمان، وإن الذي أخبر عن نفسه بقوله: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» ما كان ليتغافل عن أهمية الأخلاق الكريمة والصفات النبيلة ويتغاضى عن خطورتها ودقتها، ولذلك ترى أن مكارم الأخلاق والترغيب فيها والتشجيع عليها، تشغل جزءاً كبيراً من الأدعية المأثورة، ويشتمل هذا الجزء على الحقائق الخلقية، والخلجات النفسية الدقيقة التي تناولها علماء الأخلاق والنفس ـ فعلاً ـ دراسة وتحليلاً.

---

(١) رواه الإمام مسلم رحمه الله عن أبي هريرة (رضي الله عنه).

(٢) المستدرك عن عمار بن ياسر (رضي الله عنه).

فاقرأ أولاً دعاءً له ﷺ جامعاً، ثم اقرأ الأدعية المأثورة الأخرى التي تتناول الجوانب المتنوعة للخلق البشري، يقـول ﷺ في دعاء له أثناء قيامه بالليل:

«اللهم! اهـدني لأحسن الأعمال وأحسن الأخـلاق لا يهـدي لأحسنها إلّا أنت، وقني سيّىء الأعمال وسيّىء الأخلاق، لا يقي سيئها إلّا أنت»[1].

* * *

وحينما يشاهد الإنسان صورته في المرآة، يدرك اعتدال أعضائه، واتزان جسمه، وصدق قوله تعالى: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ فلم يفت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أن يشعر أمته في هذه المناسبة بأهمية الخلق الحسن، فعلّمها أن تدعو الله لتحسين الباطن بجانب تحسين الظاهر، فباجتماعهما يستحق البشر أن يكون خليفة في الأرض، فيقول ﷺ وهو يرى صورته في المرآة:

«الحمد لله، اللهم! كما حسنت خلقي فحسن خلقي»[2].

إن الحياة الطيبة تحتاج في تكاملها إلى إيمان، وصحة، وخلق حسن، فيقول ﷺ في دعاء له:

«اللهم! إني أسألك صحة في إيمان، وإيماناً في حسن خلق»[3].

وفي دعاء آخر: «وأسألك لساناً صادقاً، وقلباً سليماً، وخلقـاً مستقيماً»[4].

---

(١) رواه النسائي عن جابر بن عبدالله (رضي الله عنه).
(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أم سلمة (رضي الله عنها).
(٣) رواه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة (رضي الله عنه).
(٤) رواه الإمام الترمذي عن شداد بن أوس (رضي الله عنه).

دقائق أخلاقية:

وقد دعا النبي ﷺ بجانب هذه الأدعية العامة المجملة التي تتصل بمكارم الأخلاق ومحاسن الأوصاف، لبعض المحاسن الأخرى ـ وقد لفت بذلك انتباه الأمة للاهتمام بهذا الجانب العظيم ـ التي هي في غاية الدقة والخطورة وهي بمنزلة المقياس لتكامل الأخلاق، فمما يدل على كمال الأخلاق والإنسانية، والشرف والكرامة، والورع والتقوى، أن يرزق الإنسان حب الفقراء والمساكين، فقد كثر من يُجلّون الثروة وذويها ويكرمون الدنانير والدراهم وأهلها، أما الذين يحبون الفقراء والمساكين، ويعطفون على ذوي الحاجة، فهم في قلة وندرة، إلّا من وفقه الله وهداه إلى مسالك الخير، يقول صلى الله عليه وآله وسلم في دعائه:

«اللهم! إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين»[1].



لقد اعتاد الإنسان أن يستكبر نفسه، ويستصغر غيره، ولم يسلم من هذا الداء إلّا أولئك الأفذاذ المخلصون الذين عصمهم الله، فتزكت نفوسهم، وتنزهت قلوبهم، والتأمل في ذلك يؤدي إلى أنه قد شذَّ من يسلمون من داء الاستكبار والإعجاب، لأن ذلك الداء يتمكن من النفس من حيث لا يشعر بنو آدم، وبألوان وأشكال لا يدركها البشر، ولكي يسلم منه الإنسان يحتاج إلى العناية البالغة والاهتمام المتواصل بالدعاء، لأن إدراك هذا الداء وتشخيصه صعبان، والشفاء منه شيء غير يسير، ولذلك فسيّد المخلصين يدعو لنفسه، ويعلم أمته أن تدعو لنفسها:

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه عن ثوبان (رضي الله عنه).

«اللهم! اجعلني صبوراً، واجعلني شكوراً، واجعلني في عيني صغيراً، وفي أعين الناس كبيراً»[1].



إن اتحاد الظاهر والباطن وصلاحهما من نعم الله العظمى ومن فضل الله الكبير، الذي يحتاج الحصول عليه إلى العناية الزائدة بالدعاء المخلص، يقول معلم الأخلاق ﷺ:

«اللهم! اجعل سريرتي خيراً من علانيتي، واجعل علانيتي صالحة»[2].

ويفصّل ﷺ ذلك في هذا الدعاء:

«اللهم! طَهِّر قلبي من النفاق، وعملي من الرياء، ولساني من الكذب، وعيني من الخيانة، فإنك تعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور»[3].

التعبير عن القلب:

لقد ناب النبي ﷺ في دعائه عن كل إنسان في كل ما يحتاج إليه بأكمل ما تكون النيابة، وسوف يجد كل إنسان في كل زمان ومكان، إلى يوم يرث فيه الله الأرض ومن عليها، في دعائه ﷺ تعبيراً عن قلبه، وتمثيلاً لعواطفه ومشاعره، وأسبابٍ ارتياحٍ لقلبه، وطلباً لحاجات قلما تخطر ببال عامة البشر، اقرأ هذا الدعاء على سبيل المثال:

(اللهم! إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء

---

(١) جاء في «كنز العمال» عن بريدة (رضي الله عنه).

(٢) رواه الترمذي عن سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

(٣) «كنز العمال» عن أم سعيد (رضي الله عنها).

والأدواء، نعوذ بك من شر ما استعَاذ منه نبيك محمد ﷺ[1]، ومن جار السوء في دار المقامة، فإن جار البادية يتحول، وغلبة العدو، وشماتة الأعداء، ومن الجوع، فإنه بئس الضجيع، ومن الخيانة، فإنها بئست البطانة، وأن نرجع على أعقابنا، أو نفتن عن ديننا، ومن الفتن، ما ظهر منها وما بطن، ومن يوم السوء، ومن ليلة السوء، ومن ساعة السوء، ومن صاحب السوء)[2].

طلب السعة في الرزق عند كبر السن:

كل واحد منا يحتاج إلى الرزق، غير أنه كم منا من يدرك أن السعة في الرزق والرغادة في العيش، يحتاج إليهما الإنسان ـ بأشد ما يكون الاحتياج ـ حينما يجتاز آخر مرحلة من مراحل حياته، فلا يقدر على تحمل المشاق ومعالجة العسر، ويفقد القدرة على كسب المعاش، وتعجز قواه عن الكد والاجتهاد، فيصبح حريصاً على الراحة وسعادة العيش وسعة الرزق. انظر كيف يدعو لذلك معلم الحكمة ﷺ:

«اللهم! اجعل أوسع رزقك عليّ عند كبر سنّي وانقطاع عمري»[3].

طلب صلاح آخر العمر، وسعادته وفلاحه:

ولم يكتف ﷺ بطلب السعة في الرزق في آخر العمر، بل دعا أن يسود هذه المرحلة الباقية من العمر، خير من كل جانب، وأن تكون آخر المراحل أسعدها، وأفلحها، وأصلحها، فيقول:

---

(١) جاءت هذه الفقرة نيابة عن من يدعون من الأمة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام.

(٢) الترمذي عن أبي أمامة (رضي الله عنه).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك عن عائشة (رضي الله عنها).

«واجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتيمه، وخير أيامي يوم ألقاك فيه»[1].

طلب فجأة الخير وسؤال النجاة من فجأة الشر:

ما من شك في أن الخير والنِّعمة من ملاك السرور والراحة، إلا أن الخير الذي يصيب الإنسان فجأة، ويساق إليه بغتة، يجلب سروراً يفوق الوصف، وكذلك إذا كانت الشرور والفتن مما تجب منه الاستعاذة والاستخلاص مرة، فالشر الذي يفجأ الإنسان ويصيبه مصادفة، تجب الاستعاذة منه مائة مرة، والذين جابهوا ذلك وجربوه، يعرفونه جيداً، ترى كم منا من يتذكر خطورة هذا الأمر وهَوْله فيستعيذ منه؟ إن هذا الأمر لم يفت النبي ﷺ، فقد ذكره في دعائه فقال:

«اللهم! إني أسألك من فجأة الخير وأعوذ بك من فجأة الشر»[2].

الاستعاذة من زوال النعمة بعد حصولها:

وكذلك الفقر والاحتياج بعد العيش السعيد والرزق الرغيد، والعسر بعد اليسر، مما تجب الاستعاذة منه، فإن ذلك ابتلاء شديد، ومحنة خطيرة، وقد دعا له ﷺ بكل عناية:

«اللهم! إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجأة نقمتك»[3].

الاستعاذة من أرذل العمر:

إن طول العمر مما طلبه الإنسان دوماً منذ اليوم الأول، وقد جرت العادة أن يدعو البعض للبعض بطول العمر والبركة في الحياة، لكن

---

(١) رواه الطبراني عن أنس (رضي الله عنه).

(٢) أخرجه النووي في «كتاب الأذكار» عن أنس (رضي الله عنه).

(٣) رواه مسلم وأبو داؤد عن عمرو بن العاص (رضي الله عنه).

طول العمر الذي يُفقد القوى، ويجعل الإنسان عاجزاً عاطلاً كَلاًّ على غيره، شيء تجب الاستعاذة منه، لذلك يدعو النبي ربه فيقول:

«اللهم! إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والهرم، ومن أن أُردَّ إلى أرذل العمر»(١).

الاستعاذة من نفس حريصة لا تشبع ومن علم عقيم لا ينفع:

قد يرى الإنسان الأموال غاية عظيمة، وأكبر شيء في الحياة، ولا يذكر أن الكثرة الكاثرة، والكمية الكبرى من الثروة لا تكفي لنفس حريصة لا تشبع. إنها لمصيبة للإنسان نفسه، وللعالم كله، ولذلك استعاذ منها الحكيم الرباني ﷺ، وأوصانا بالاستعاذة منها. وكذلك العلم الذي لم يكسب صاحبه الخشية والتقى، ولم ينفع الناس، والقلب الجريء الذي حُرم خشية الله، وتجرد من خوف خالقه، كل ذلك تجب الاستعاذة منه، والتحصن منه، فقد جنى على الإنسانية ما لم يجن عليها الأعداء، وقد حوى النبي ﷺ كل ذلك في دعاء واحد:

«اللهم! إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع، ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع، أعوذ بك من هؤلاء الأربع»(٢).

بعض الحوائج الأساسية والجذرية في الحياة:

إن من الحوائج الجذرية الواقعية التي لا معدى للبشر عنها ـ لكي يحيى حياة سعيدة ـ هي الدار الواسعة مع الرزق الواسع، إنها حاجة لم تقل أهميتها في أي فترة من الزمان، أما في الحياة المعاصرة فقد أصبحت تُشكّل مشكلة كبيرة، وأصبحت من أهم متطلبات الحياة، غير أنه يجب أن لا يفوتنا أن نتذكر أن سعة الدار ليست كل العلاج، وإنما

---

(١) رواه الشيخان في صحيحيهما.

(٢) رواه الترمذي والنسائي عن عبدالله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما).

هو كفايتها لأهلها، وشعورهم بسعتها، فلو عدم الشعور بسعتها، لما كفت أوسع دار لطبع طموح ونفس طماعة، وعدم الشعور بالطمأنينة والـرضى هو السِرُّ وراء مشكلات الحضارة الحاضرة، ونظم الاقتصاد المعاصرة التي تستعصي على المعالجة، ولذلك فالنبي الحكيم ﷺ يسأل ربه: «السعة في الرزق» و«السعة في الدار» مكان «سعة الرزق» و«سعة الدار»، والفرق بينهما واضح لكل خبير.

«اللهم! اغفر لي ذنبي، ووسّع لي في داري، وبارك لي في رزقي».

التعبير عن حاجيات المسافر ومشاعره:

السفر من الحوائج التي لا بد منها للإنسان، والمسلم ـ بحكم المركز الذي يحتلُّه في الكون ـ يجب أن لا تخلو أي خطوة منه بل وأي تحرك منه، من الدعاء والاستخارة، وطلب البر والنجاح، فالسفر الذي هو من أهم الخطوات، يجب أن يكون مشفوعاً بكمية كبرى من الدعاء وطلب الخير، وسؤال الصلاح والفلاح، فالمسافر يترك داره وأهله، ويصادف سفراً طويلاً وأمكنة جديدة، وأناساً لا يألفهم، ويقضي مدة في هجرة من أهله، وبعد عن وطنه، ويموج قلبه بخليط من الآلام والآمال، ويساوره الحزن على ما تركه وراءه من الوطن والأهل والمال، وتخالطه الأماني فيما يستقبله. ثم إن العناية بالسفر، والتأهب له، ومتـاعبه ومشاقه، وبعد المنزل، والاهتمام بالأهداف، والحنين إلى الغايات، والتطلع إلى الأغراض، كل ذلك يقلق قلبه، ويشوش ذهنه، وهو ـ لكي يفـوز بالنجاح ـ يحتاج في كل مرحلة من هذه المراحل، إلى نصر الله ونجدته، وعونه وعصمته.

فانظر كيف جاء التعبير جامعاً شاملاً كل هذه النتائج والأحاسيس في هذا الدعاء الموجز، الذي لا يمكن لأحدٍ من البشر ـ مهما تمتع

بذكاء وافر، وأعمل فكره العميق ـ أن يأتي بدعاء أشمل منه وأكمل، وأجمل وأدل:

«اللهم! إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم! هوّن علينا سفرنا هذا، واطوِ عنا بُعد الأرض، اللهم! أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم! إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في الأهل والمال»[1].

غير أنه ليس السفر وحده هو الذي يستحق العناية بالدعاء، بل ينبغي للمسافر أن يطلب الخير والبركة كلما أتى مكاناً جديداً، ودخل مثوى جديداً، فقد جاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ كان يكرر ثلاث مرات، كلما دخل قرية: «اللهم! بارك لنا فيها»، ثم يقول: «اللهم! ارزقنا جناها». وكل مسافر بصورة عامة، والمسافر الذي يحمل دعوة ورسالة بصورة أخص، يحتاج إلى أن يحرز حب أهل القرية التي نزل بها، لكي يرتاح ضميره، ويطمئن قلبه، ثم لكي تتمكن رسالته من القلوب، إلا أن المسلم تحتم عليه عقيدته ودينه أن لا يقصد إلا حب أهل الصلاح والفلاح، والدين والتقي، ولذلك يقول ﷺ في دعائه:

«وحببنا إليّ أهلها، وحبب صالحي أهلها إلينا»[2].

الدعاء عند إقبال الليل والنهار:

ليس السفر أو المنزل هما اللذين يستحقان من المؤمن العناية بالدعاء والاستخارة وحسب، لا، بل يجب أن يطلب المؤمن من ربه لدى إقبال كل ليل وإدبار كل نهار، وبالعكس، ما فيهما من الخير والنفع، ويستعيذ

---

(١) رواه مسلم والترمذي وأبو داود عن عبدالله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما).

(٢) رواه الطبراني عن ابن عمر (رضي الله عنهما).

به مما فيهما من الشر والفتنة، ويشهد بأنه هو المالك الحقيقي المطلق، سائلاً أن يجعل له الحظ الأوفر والنصيب اللائق مما فيهما من الصلاح والبركة والنجاح، وينبغي أن يستحضر لدى كل تطور وتغير يمر به، هذه الحقيقة الكبرى، فقد جاء في الحديث الشريف أن النبي ﷺ كان يدعو كلما كان يمسي:

«أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قدير، رب أسألك خير ما في هذه الليلة، وخير ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر»[1].

ويدعو حينما يصبح، فيضع كلمة «أصبحنا وأصبح الملك لله»، مكان «أمسينا وأمسى الملك لله»، وجاء في حديث آخر دعاء بهذه الكلمات:

«أصبحنا وأصبح الملك لله رب العالمين، اللهم! إني أسألك خير هذا اليوم: فتحه ونصره ونوره وبركته وهداه، وأعوذ بك من شر ما فيه ومن شر بعده»[2].

الاستعاذة من شرّ النفس:

لا شك في أن أخوف ما يجب أن يخافه الإنسان، وأجدر ما يجب أن يستعيذ منه البشر، هو شر نفسه، فكل ما شهده العالم من فظائع الدمار والهلاك، ومظاهر الوحشية والاستبداد، ومن خسارة الدنيا والآخرة، كل ذلك يرجع إلى «شر النفس»، ولذلك أكثر الرسول ﷺ من

(١) أخرجه صاحب جمع الفوائد عن أبي مالك (رضي الله عنه).

(٢)رواه مسلم والترمذي وأبو داود عن ابن مسعود (رضي الله عنه).

الاستعاذة من هذا العدو الألدّ، فقد جاء في دعائه عند الصباح:

«اللهم! فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شيء، والملائكة يشهدون أنك لا إله إلاّ أنت، فإنا نعوذ بك من شر أنفسنا ومن شر الشيطان الرجيم، وشركه، وأن نقترف سوءاً أو نجره إلى مسلم»[1].

وجاء في دعاء آخر:

«اللهم! قني شر نفسي، واعزم لي على رشد أمري»[2].

وجاء في دعاء آخر:

«يا حي يا قيوم! برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين»[3].

طلب الخشية واليقين:

إن ما يقف سدّاً منيعاً، وسياجاً حديدياً، بين العبد وشر النفس والمعاصي، هو خشية الله، والذي يهوّن على العبد ضربة البلايا والرزايا، ويخفف عليه أثر المآسي والمصائب، هو اليقين، فيقول ﷺ:

«اللهم! اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا»[4].

منطلق الشرور والمعاصي والاستعاذة منه:

إن منطلق هذه الشرور والمعاصي، وأنشط وأقوى عامل من

---

(١) جمع الفوائد عن أبي مالك (رضي الله عنه).

(٢) رواه الترمذي عن أنس (رضي الله عنه).

(٣) رواه أبو داود عن ابن عمر (رضي الله عنه).

(٤) رواه الترمذي عن ابن عمر (رضي الله عنه).

عواملها، هو حب الدنيا، إنه منبع الخطيئات كلها، فقد جاء في الحديث الشريف: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»، أما طبيعة النبوة فهي: «اللهم! لا عيش إلاّ عيش الآخرة» و﴿إن الدار الآخرة لهي الحيوان﴾، وقد جاء في دعائه ﷺ:

«ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا غاية رغبتنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»[1].

حب الله هو الدواء الوحيد لكل داء:

بالتأكيد، إن الذي يسهل الدين ويحببه إلى القلوب، ويكره إليها العصيان والفسوق، ويستخرج حب الدنيا من أعماقها ـ فتصبح كل عَظَمَةٍ في الدنيا شيئاً لا قيمة له ـ والذي يثبت القلوب والأقدام لدى كل ابتلاء ومحنة، هو حب الله الخالص من كل شائبة. ألا إن القلب الذي تمكن من هذا الحب، وتغلب على هذا الهيام لم يهب ـ ولن يهاب ـ أي جلال دنيوي، ولم يأخذه ـ ولن يأخذه ـ أي جمال، وقد تغنى بذلك شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال في شعره الأرديّ، فقال:

«حب الله عجب في عجب، فإنه يجعل القلب يستغني عن العالمين بما فيهما».

إن العلاقة التي تقوم على أساس من الحدود والقيود، والطاعة التي تفرضها الأوامر والنواهي، لن تقوما مقام هذا الحب، ولن تقوما بالدور الذي تقوم به هذه العلاقة، فإن القوانين ربما تؤدي إلى اتخاذ «الباب السِرّي» و «المدخل الخلفي»، ثم إن القوانين تأتي بالتأويلات، وتأخذ الكلمات فتحمِّلها ما لا تحتمل، ثم إنها تمل فتضع السلاح. أما الحب فلم يعرف التأويل والملل قط، وبعد عن الكل،

---

(١) رواه الترمذي والنسائي عن عبدالله بن عمر (رضي الله عنهما).

وتعالى عن الاستكانة والاسترخاء، فهو داء ودواء، وإن هؤلاء العشاق ـ كما قال الشاعر الفارسي ـ لا يبالون بوعورة الطريق، لأن الحب هو طريق ومنزل معاً، ولذلك فالنبي ﷺ عني بالدعاء لهذا الحب أبلغ العناية وأكملها:

«اللهم! اجعل حُبك أحبَّ إليّ من نفسي وأهلي ومن الماء البارد»[1].

وجاء في دعاء آخر:

«اللهم! اجعل حبك أحب الأشياء إليّ، واجعل خشيتك أخوف الأشياء عندي، واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك، وإذا أقررت عين أهل الدنيا من دنياهم، فأقرر عيني من عبادتك»[2].

وجاء في دعاء آخر:

«اللهم! ارزقني حبك وحب من ينفعني حبه عندك، اللهم! فكما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، اللهم! وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب»[3].

طلب نصر الله وعونه وعطفه وكرمه:

بيد أن هذا الحب، وهذه الطاعة، والتوفيق للعبادة، والذكر والشكر، كل ذلك منوط بعطف الله وكرمه، ويتوقف على إعانته ونصرته، ولذلك أوصى حبيب رب العالمين ﷺ أحد أصحابه بهذه الكلمات التي تتدفق بالحب، وتفيض بالحنان:

«يا معاذ! والله إني لأحبك، أوصيك يا معاذ! لا تدعن في دبر كل

---

(١) الترمذي عن أبي الدرداء وعن معاذ (رضي الله عنهما).

(٢) جاء في «كنز العمال» عن أبي مالك (رضي الله عنه).

(٣) رواه الترمذي عن عبدالله بن يزيد الأنصاري (رضي الله عنه).

صلاة أن تقول: «اللهم أعنّي على ذكر وشكرك وحسن عبادتك»[1].

شهادة القلب السليم:

هذه هي الأدعية المأثورة ـ التي ألقينا على نزر منها نظرة عابرة ـ يتجلى فيها ـ كل التجلي ـ نور النبوة ويقينها، وحكمة الأنبياء وعلمهم، وحبهم وعرفانهم، وهي مزية الأنبياء كلهم عامة، ومن سمات سيد الأنبياء ﷺ خاصة، وإن القلب ـ إذا كان على فطرته الصحيحة التي فطره الله عليها ـ سيشهد كلما يمر بهذه الأدعية، بأنها من كلام النبي المعصوم المصون ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحي، كما شهد القلب السليم في صدر عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ حينما وقع نظره على وجه النبي ﷺ (والله، هذا ليس بوجه كذاب).

وقد شهد بالأمرين كليهما العارف الرومي ـ مولانا جلال الدين الرومي ـ في شعره الفارسي فقال:

(إن ألم القلب وجرحه اللذين يعانيهما العشاق لذة في لذة لمن يعرف حقيقة هذا الألم، وإن كلام النبي ووجهه كليهما معجزة من المعجزات).

فلئن كانت أبواب السير، والأعمال، والأخلاق، والعبادات، قد دلت على كمال النبوة وفضلها، وعلومها وحكمتها، فإن هذه الأدعية المأثورة دليل من دلائل النبوة ومعجزة من معجزاتها.

فما أسعد الأمة التي ورثت من نبيها ـ محمد رسول الله ﷺ ـ مفتاح الدين والدنيا، ونعم الغيب وثروته؟! وبالعكس، ما أشقى تلك الأمة التي لم تتمتع بهذا المفتاح، ولم تستخدم هذا السلاح؟.

---

(١) رواه أبو داود والنسائي عن معاذ بن جبل (رضي الله عنه).

وأخيراً، لا بد من إثبات حقيقة كبرى: إن من شقاء المنكرين للسنة ـ بالإضافة إلى خسائرهم الأخرى الكثيرة الكبيرة ـ أنهم حرموا تلك الأدعية المأثورة: الكلمات النبوية التي هي جزء من الأحاديث، فالشبهات التي تمكنت من قلوبهم في صحة الأحاديث وثبوتها، حالت ـ طبعاً ومنطقياً ـ بينهم وبين التمتع بهذه الثروة، الغيبية الغنية، واتخاذها وسيلة إلى التضرع والتعبير عما في القلب، وكفى به عقاباً[1].

(١) مقتبس من رسالة «دراسة السيرة النبوية من خلال الأدعية المأثورة المروية» من تأليف أبي الحسن الندوي وتعريب الأستاذ نور عالم الأميني الندوي، طبع «المختار الإسلامي» بالقاهرة.

كلمة عن أدب التراجم والتقديمات

إن كثيراً من الكُتّاب والأدباء ـ فضلاً عن الشادين في اللغات والمتطفّلين على الآداب ـ يعتبرون موضوع التعريف برجل من ذوي الشأن والخطر، وترجمة حياته ووصفه، من أسهل الأغراض الأدبية والموادّ الكتابية، فيهيلون على من يترجمونه أو يعرّفونه، ألقاباً ونعوتاً بسخاء وفي حريّة، يكون أكثرها كلمات مدح وإطراء مشتركة، يمكن أن تقال عن كل عالم وأديب، أو عظيم وجليل، أو صالح وتقي، أو حاكم حكومة، أو قائد جيش، لا تفيد تحديد الشخصية وتعيينها، وتصوير القسمات والمخايل والتجاعيد التي يمتاز بها وجه عن وجه، وجسم عن جسم. واللغة العربية من أغنى اللغات في كلمات الوصف والمدح، والحلية والزينة، ويكفي الكاتب أن يمد يده إلى كتاب «الألفاظ الكتابية» لعبد الرحمن بن عيسى الهمداني (م ٣٢٠ هـ) ليأخذ ما يشاء من كلمات الوصف والمدح فيجود بها لصاحبه، أو يرجع إلى كتب التراجم والسير ـ والمكتبة العربية من أغنى مكتبات العالم فيها ـ فيختار منها جملاً وكلمات ويصف بها المترجم أو الممدوح ومن يكتب عنه، فيتشابه الرجال ويتماثلون ولا يخرج القارىء من الترجمة بمعرفة شخصية دقيقة معينة، ولا يشعر بالحيوية والحرارة، والرِقّة والنعومة والمرونة والحركية والعواطف والمشاعر، والأحاسيس والانعكاسات

وردود الفعل، التي تمتاز بها الأجسام الحيّة عن التماثيل والنصب والصور والدُّمَى، ويمتاز بها الإنسان عن الحيوان فضلاً عن الجمادات والنباتات

ولكن وصف شخصية أو ترجمة إنسان، ليست من السهولة والعموم بالمكان الذي يتصوره كثير من الناس، لأنها تحتاج إلى عدة مؤهلات، أولاها: المعرفة الشخصية الواعية الناقدة، وإذا كانت المعرفة عن طريق المعاشرة والصحبة فهي من أفضل المؤهلات وأقواها، وإلاّ فعن طريق الدراسة الأمينة وتتبّع الأخبار. وثانيها: أن تقوم بينهما صلة من الصلات التي تحثّ على تتبُّع الأخبار والتعرُّف على الخصائص. ويليها الاقتدار على البيان والتعبير وتملّك ثروة لغوية وكلمات مميزة فاصلة. ثم يأتي دور الدقة والأمانة والشعور بالمسؤولية، والقدرة على تفصيل اللباس على قدر قامة المترجم والمعرّف به، فلا يكسوه لباساً سابغاً فضفاضاً يبدو فيه قزماً حقيراً، أو ينمُّ عن أنه لباس فصِّل لغير هذا الإنسان ولقامة أطول من قامته، وللرجال قامات وقيم، وقد تكون الجناية على القيمة أشنع من الجناية على القامة.

ويهم كذلك أن يرافق هذه الكتابة في ترجمة حياة أو تعريف بشخصية، دافع نبيل ورغبة ملحّة تنبع من القلب، ومن تجاوب مع فكرة، أو استجابة لنداء الضمير، أو دفاع عن كرامة مهضومة، وحق سليب، أو ردّ لاعتبار، أو وفاء بفضل، أو إعجاب بجمال أو كمال، فإن الكتابة إذا تجرّدت عن هذه العوامل كلها كانت أشبه برسم خشيب جامد أو وشي وتطريز لمجرد الربح المادي والغرض التجاري، ويكون الكاتب أو الشاعر في ذلك كالمطرب المحترف أو النائحة المأجورة.

ثم يجب أن يعرف الكاتب أن للكلمات درجة حرارة وبرودة (TEMPERATURE) فلا توضع كلمة ذات حرارة متصاعدة مكان

كلمة ذات حرارة منخفضة، فضلاً عن أن توضع كلمة ذات حرارة مكان كلمة ذات برودة، ولا يسخو بكلمة تعطي صورة هائلة من العظمة والكمال، أو النبوغ والذكاء، أو الخلق الحسن والسيرة العالية، أو العلم الغزير والذكاء الألمعي، لشخصية لا تستحق إلا كلمات فيها التوسط والاقتصاد، ثم يضعه في طبقته ويحدّد اختصاصه وتميّزه في فن من الفنون أو موضوع من الموضوعات. والمشكلة حين يكون المترجم جامعاً بين أصناف العلم وضروب الكمال وأشتات الفضائل كما كان الشأن مع العلماء الأقدمين بصفة عامة، فلا يقدر على تحديد اختصاصه إلّا من اطّلع على مؤلفاته جميعاً، واطّلع على آراء معاصريه فيه وحكمهم عليه.

وبهذه الخصيصة امتاز العلامة شمس الدين أحمد بن خلكان (م ٦٨١ هـ) في كتابه: «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» من بين مؤلفي كتب التراجم والسير، فإنه إذا وصف أحداً من المترجمين بقوله النحوي، أو الفقيه، أو الأديب، أو المفسّر، أو اللغوي، أو الواعظ، فليس من الميسور زحزحته عن مكانه الرئيسي والاختصاصي، ووضعه في طبقة أخرى، وهذا قلّما تيسّر لمؤلفي كتب التراجم والسير، ولا يقدر عليه إلّا صاحب سليقة في فن التراجم، ومن أعطاه الله الدقّة في الحكم ورقّة الشعور وحسن الذوق والاطلاع الواسع الدقيق.

ولقد أراد الله أن أنشأ في بيئة كانت هوايتها التاريخ وكتابة التراجم والسير، وأن أولد في أسرة كان فيها مؤرخون ومؤلفون، وكان أكثر اشتغالهم بالتأليف في تراجم الرجال، وطبقات الشعراء والأدباء، وسير العظماء من المصلحين والعلماء والملوك والأمراء. فكان جدّي العلامة السيد فخر الدين الحسني (م ١٣٢٦ هـ) من السابقين إلى فكرة وضع موسوعة باللغة الفارسية حين لم يخطر هذا ببال كثير من العلماء

والمؤلفين في شبه القارة الهنـدية، وذلك قبل ثمانين سنة أو أكثر حين لم تعرف الموسوعات ودوائر المعارف في الهنـد ولا حتى في اللغات الأجنبية، فوضع كتابه: «مهرجَهان تابْ»[1] في مجلّدين ضخمين يحتوي المجلد الأول بخطّ مؤلفه على ثلاث مائة وألف (١٣٠٠) صفحة بالقطع الكبير، وأكثرها تراجم لطبقات الصوفية والعلماء والشعراء، ووفّق والدي العلامة السيد عبد الحي الحسني (م ١٣٤١ هـ) لوضع أكبر كتاب يعرف في شبه القارة الهندية في تراجم الرجال الذين نبغوا في الهند من القرن الإسلامي الأول إلى سنة وفاة المؤلف ١٣٤١ هـ (١٩٢٣ م) يغطّي المساحة الزمنية من القرن الأول إلى القرن الرابع عشـر الهجري، والمساحة المكانية من ممرّ خيبر في الشمال الغربي من الهند إلى خليج بنغال في الشرق، ومن قلل كشميـر إلى مالابـار وكالي كـوت في الجنـوب، والأعيان من كـل طبقة على اختـلاف مذاهبهم الفقهيـة واتجاهاتهم العلمية، واختصاصاتهم الفنية، فجاء في ثمانية مجلدات كبار يحتوي على أكثر من أربعة آلاف وخمس مـائة (٤٥٠٠) من التراجم[2]، وهو أشبه في أسلوبه ومنهجه وتعبيراته بابن خلكان، وفي الدقة والأمانة، وتحرّي الصدق والقياسات اللائقة والدقيقة، وفي تخيّر الأوصاف والنعوت، هذا إلى كتاب آخر اسمه: «كل رعنا»[3] في طبقات شعراء الهند بلغة الأردو، اعتبر من المراجع الرئيسية في تاريخ الشعراء ونقد الشعر، وقرّر تدريسه في عدة جامعات في القـارة الهندية، يضاف إليهما كتابه الثالث: «ياد أيام»[4] في تاريخ ولاية كجرات وعلمائها

---

(١) معناه الشمس المضيئة للعالم.

(٢) صدرت طبعتان للكتاب من دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الهند.

(٣) معناه بالعربية الوردة الرشيقة، صدرت أربع طبعات من المجمع العلمي الكبير (دار المصنفين) في أعظم كره الهند.

(٤) معناه «ذكرى الأيام الماضية»، صدرت له طبعتان.

وعظمائها وحكوماتها، وهو النموذج العالي لتاريخ بلاد وولايات، يجب أن يُحتَذَى ويقلَّد، وقد قرأت هذه الكتب في سن مبكرة، لأنها كتب كانت بمتناول اليد، وكانت الدوافع إلى قراءتها قوية وطبعية، فحفظت منها الكثير، وقلّدت أسلوب المؤلف حين بدأت أشدُو في اللغة والأدب وأمسكت القلم للكتابة والإنشاء.

لذلك كله كان أدب التراجم والسير من أحب الآداب وأخفّها وأسهلها إليّ، وكان هوايتي وشغلي الشاغل في سنّ قلّما يتيسر فيها الكتابة لكثير من هُواة الأدب والإنشاء، فبدأت أؤلف في تراجم الرجال وسير النابهين من العلماء والمصلحين بالعربية قليلاً، وبالأردية أكثر، وتكوّن منها مكتبة لا بأس بها في كتب التراجم وسير المصلحين والمجدّدين في الإسلام، والدعاة والمربّين الذين نفع الله بهم الأمة ونهض بها في مختلف الأدوار والأمصار.

وكلمة عن التقديمات:

إن تقديم كتاب لمؤلف معاصر أو عالم كبير، أو صديق عزيز، ليس عملاً تقليدياً يقوم به الكاتب مجاملة أو تحقيقاً لرغبة المؤلف أو الناشر أو إرضائه، إنه شهادة وتزكية، ولهما أحكامهما وآدابهما ومسؤوليتهما، وقد يتحول من شهادة بالحق وتقييم الكتاب تقييماً علمياً، وبيان مكانته في ما كتب وألف في موضوعه، ومدى مجهود المؤلف في إخراج هذا الكتاب ونجاحه في عمله التأليفي أو التحقيقي، إلى سمسرة تجارية أو قصيدة مدح وإطراء من شاعر من شعراء المديح، فيفقد قيمته العلمية والأدبية ويتجرّد من الحياة والروح، وهو زيادة معلومات وإلقاء أضواء على موضوع الكتاب ومقاصده، وعلى حياة المؤلف ومكانته بين العلماء المعاصرين، وفي عصره ومصره، وعلى تكوينه العقلي ونشوئه العلمي، والدوافع التي دفعته إلى التأليف في هذا الموضوع رغم وجود

مكتبة واسعة في موضوعه أو مجموعة من الكتب التي ألفت في هذا الموضوع، ولا يكون التقديم مجموع كلمات تقريظ ومدح يُمكن أن يحلّى به جيد أي كتاب إذا غيّر اسمه واسم مؤلفه.

فلا بد من أن تكون بين المقدّم للكتاب وبين موضوعه صلة علمية أو ذوقية أو دراسة وافية للموضوع وما ألف فيه، وارتباط وثيق كذلك بينه وبين المؤلف، يمكّنه من الاطلاع على تركيبه العقلي والعلمي والعاطفي ـ إذا كان الكتاب في موضوع علمي أو أدبي أو فكري أو دعوي ـ وعلى مدى إخلاصه لموضوعه واختصاصه وتفانيه فيه ورسوخه في العلم والدين، وأخذهما من أصحاب الاختصاص فيه المعترف بفضلهم ـ إذا كان الكتاب في موضوع ديني كالتفسير والحديث والفقه وما إلى ذلك ـ ويجب أن يكون هذا التقديم عن اندفاع وتجاوب، وتحقيقاً لرغبة نشأت في نفس المقدم بعد قراءة هذا الكتاب، تحثّه على كتابة هذا التقديم، وتحببها إليه وتيسرها له، بحيث إذا امتنع عنها اعتبر نفسه مقصراً في أداء حق وإبداء مشاعر وانطباعات، وحاجةً في نفس يعقوب ما قضاها، وذلك هو التقديم الطبيعي المنصف الذي له أثره وفائدته.

وقد وقع بصري أخيراً على مقالات بالعربية كتبتها في إبداء مشاعري وانطباعاتي عن شخصيات عاشرتها وعشت معها، أو عرفتها عن كثب لا عن كتب، وعن خبرة وتجربة لا عن سماع وحكاية، وقد كتبتها في مناسبات مختلفة، غالباً على أثر وفاتها، لبعض المجلّات العربية، كـ «حضارة الإسلام» الدمشقية التي كان يرأس تحريرها فقيد الإسلام والعلم الدكتور مصطفى السباعي، أو «البعث الإسلامي» أو صحيفة «الرائد» الصادرتين من ندوة العلماء، واطلعت كذلك على تقديمات قدّمت بها مؤلفات لبعض كبار العلماء أو المؤلفين الأصدقاء، ورأيت أنها إذا جمع بعضها مع بعض كانت مجموعة يتعرّف بها القرّاء

على تراجم هؤلاء الفضلاء، والعاملين لرفع شأن الإسلام والمسلمين، والمربّين الكبار، وقادة أكبر الحركات الإسلامية في عصرهم، ويترحّمون عليهم ويدعون لهم ويتعلمون منهم الكثير من الإخلاص والأخلاق وعلو الهمة، والاهتمام بالأمة، والجمع بين الفضائل المتشتة، وكذلك يطّلعون على بعض الكتب المهمة المفيدة في موضوعها، فيحملهم ذلك على مطالعتها والإفادة منها، ويصبح الكتاب حديقة واسعة زاهرة ينتقل فيها القارىء من داعية قائد إلى عالم مرب، ومن مخلص ربّاني إلى نموذج عال إنساني، ومن مجاهد مناضل إلى مؤلف ومحقق، ومن كتاب في دراسة مقارنة بين الأديان إلى كتاب في الحديث، إلى كتاب في الأدب والشعر، إلى كتاب في التراجم، فلا يملّ ولا يسأم، ولا يملأ وعاءه من نوع خاص من علم أو أدب أو كفاح أو عمل إسلامي، أو بحث علمي وتحقيق موضوعي.

وقد رتبت التراجم والمؤلفات على تقدمها وتأخرها الزمني لا على مراتبها، وعلى سني الوفاة في التراجم، وعلى زمن تأليفهم في الكتب والمؤلفات[1].

---

(١) ظهر هذا الكتاب باسم «شخصيات وكتب» من مكتبة الصحوة بالقاهرة ومن مطبعة ندوة العلماء لكهنو (الهند).

* أدب الرحلات *

إن مكتبة اللغة العربية ـ القديمة والحديثة ـ غنية بكتب الرحلات والأسفار، وبكتب سجّلت فيها الخواطر، والانطباعات، فقد امتاز العرب والمسلمون بالشغف بالأسفار البعيدة، والمغامرات الخطيرة، ونبغ فيهم الرحَّالون والمغامرون، ومن أشهر كتب الرحلات في القديم رحلة ابن جبير الأندلسي (م ٦١٤ هـ)، ورحلة ابن بطوطة المغربي (م ٦٧٧ هـ)، وقد حفظا لنا الشيء الكثير من صور العالم الإسلامي الذي زاراه، والمجتمع الإسلامي الذي عاصراه، وشاهداه، والشخصيات التي تعرّفا بها، وعاشا معها، وهي صور وملامح تجردت عنها كتب التاريخ، الذي يدور غالباً ـ في الشرق ـ حول الملوك والأمراء وحول الأحداث السياسية، والحرب والمنافسات، والعزل والنصب، وكتب التراجم التي تدور حول العلماء والمشايخ، والمناقب والفضائل، فقد ندرت الكتب التي سجلت فيها الخواطر، والآراء والانطباعات، بالنسبة إلى كتب الرحلات والسير والأخبار، واقتصر ما وجد منها على تسجيل الهواجس وخطرات النفس، والحديث معها ومحاسبتها، وتجارب الحياة، ومن أكثر هذه الكتب حيوية، وأقواها أدباً، رسالة «المنقذ من الضلال» للغزالي (م ٥٠٥ هـ)، وكتاب «صيد الخاطر» لابن الجوزي (م ٥٩٧ هـ).

ومع الاعتراف بفضل تلك الكتب وفضل مؤلفيها في أدب الرحلات، لا بد من التسجيل هنا، أن الحياة التي صوروها، والبلاد التي رسموها، والمجتمع الذي سجلوه للأجيال القادمة، كان بسيطاً

محدوداً متكرراً لم يتسع، ولم يتعقد، ولم يتنوع، ولم يتجدد شأن الحياة في هذا العصر، والمجتمع في هذا الزمان، ولم يعرف الثورات الفكرية، والحركات السياسية، والمؤسسات الكثيرة، والفلسفات المتناحرة، والشخصيات المتناقضة، تكاد الحياة تكون في زمانهم صورة واحدة ونغمة واحدة، فكانت مهمتهم سهلة بسيطة، لا تحتاج إلى الانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر، ومن جوّ إلى جوّ آخر إلاّ نادراً.

ثم إن أكثر هذه الكتب إنما كتبت أو أمليت بعد أن مضى على هذه الرحلات والمشاهدات زمن طويل، وكان ذلك باقتراح أمير أو صديق، وإذا كانت الذاكرة لم تخن أصحابها في تسجيل الحوادث، وتحديد الأمكنة، وتعيين المقادير، وإن كان بعض الناقدين قد ساورهم الشك في دقة هذه التفاصيل، فمما لا شك فيه أنه لا ثقة بالانطباعات التي هي أشبه بالظلال والأمواج، فلا تدوم ولا تبقى ولا يستطيع الإنسان أن يستعرض ما شاهده، ولا يستطيع أن يستعيد ما شعر به وما ترك الحادث فيه من أثر نفسي، وما هاج من إعجاب أو امتعاض أو لذة أو ألم، ولم تكن «طريقة المذكرات» أو «تسجيل اليوميات» قد حدثت بعد عند الرحالين والمؤلفين، أو أنها حدثت ولكن لم يطّلع عليها القراء، ولم تتناولها يد النشر والإذاعة.

ولقد كثرت كتب الرحلات في هذا العصر لنشاط حركة التأليف والنشر، ولتيسر السفر في هذا الزمان، وتوفُّر أسباب الراحة والسرعة، والوصول إلى أقاصي البلدان، ودعاية الحكومات وتشجيعها حتى تشكلت وزارة السياحة في كثير من الحكومات، فكثرت كتب الرحلات في اللغة العربية في العهد الأخير، ولكنها ـ على ما تحتوي عليه من فوائد علمية وجغرافية، ومادة للسمر، وتزجية الوقت، وترويح النفس، وتعريف ببعض جوانب الحياة والمدنية والاجتماع ـ يغلب عليها الجانب

الجغرافي، وتعتني بالآثار والمشاهد أكثر من أي شيء، ولا تصور في الغالب إلّا جانباً من جوانب الحياة، يتلاءم مع ذوق المؤلف، أو يتجاوب مع غرض رحلته وهدفها، فإذا كان الرحالة أديباً اقتصر على ذكر الأدباء المشهورين، وتصوير الحياة الأدبية في هذه البلاد، ووصف النشاط الأدبي، وإذا كان رجلاً دينياً أسهب في وصف الحالة الدينية، وأغرق في التفاؤل أو التشاؤم، وإذا كان رجل سياسة أو إدارة، ذكر مقابلة رجال السلك السياسي، واسترسل في ذكر وصف الحركات والمذاهب السياسية وهلم جرّاً.

ثم إن أكثر هذه الكتب يتجرد عن العاطفة والعقيدة، ومشاعر النفس وأحاسيسها، ويمثل فيها المؤلفون دور آلة التصوير، أو أداة التسجيل من غير تعليق على ما يشاهدون، أو صدى في النفس لما يسمعون، فلا يسمع القارىء من خلال كتاباتهم دقّات قلوبهم، وهمسات ضمائرهم، ويمكنه أن يضع على غلاف كتاب من هذه الكتب اسم مؤلف أجنبي، لا يتصل بهذا المجتمع بثقافة أو نسب، ولا يلتقي معه على عقيدة أو ديانة، ولا يرتبط به بعاطفة أو وجدان فلا يتغير شيء، ولئن اعتبر بعض الناس ذلك فضيلة وكمالاً، ففي علماء الأدب من يعتبره نقصاً وعيباً، لأن الكتابة التي لا يستطيع القارىء أن يحدد زمانها وبيئتها، ولا يهتدي إلى عقيدة مؤلفها وفكره، والقيم والمثل التي يحبُّها وينتصر لها، ولا يشعر فيها بمرارة ألم وحزن، وحلاوة إعجاب ورضا، كتابةٌ مصطنعة لا تؤثر في النفس ولا تصلح للبقاء.

خرج مؤلف هذا الكتاب في مفتتح سنة ١٩٥١ م، في رحلة إلى عواصم الشرق العربي، ليدرس وضع هذه الأقطار الديني والعلمي، والاجتماعي، ويتعرف برجالاتها، وقادة الفكر فيها ويتذاكر معهم في الشؤون الدينية والعلمية، والقضايا الإسلامية، والمناهج الإصلاحية،

والمشاريع التعليمية، ويعرفهم ببلاده «شبه القارة الهندية» التي أسدلت عليها حجب كثيفة، وأثير حولها نقع كثير، وعاشت في عزلة عن العالم العربي منذ فترة طويلة، ويخبرهم بتجارب الدعوة والإصلاح التي مرت بها الهند الإسلامية في عهدها الأخير، وقد كتب لها نجاح كبير، ويستفيد بما جد في العالم العربي من آراء ونظريات، ونشأ من حركات ودعوات، ونبغ من رجال وشخصيات، وقام من مدارس فكرية ومؤسسات، وظهر من أساليب، وثار من مشاكل، وقد أراد الله أن ينشأ قبل أن يزور هذا البلد نشأة دينية، علمية أدبية، مثقفاً ثقافة متنوعة، وتركبت شخصيتُه من عدة عناصر، وكان يتذوق الأدب والشعر، والتاريخ والاجتماع، والحضارة وفلسفة الحياة، وقد مارس الحياة العلمية، وعمل في مجال الإصلاح والدعوة، وباشر مهنة التعليم، وعالج الكتابة والتأليف، وعرف الأساليب الأدبية، والمدارس الفكرية، والاتجاهات المتعارضة في مصر، والشام، فزار هذه البلاد على بصيرة وبينة من الأمر، وبعد أن لم يكن ينقصه إلّا اللقاء، وأراد الله كذلك أن يزور الشرق العربي الإسلامي على إثر ظهور كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» أشهر مؤلفاته بالعربية، فعرفته الأوساط الإسلامية قبل أن يزور هذه البلاد، فيسَّر كل ذلك مهمته في النفوذ في المجتمع الإسلامي العلمي، فورد كل مشرع، ونهل من كل مورد، وزار كل طبقة من الرجال، وخاض في كل موضوع، وشارك في كل بحث، وكان الحديث سجالاً يأخذ ويعطي، ويقتطف وينشر.

وقد التزم في هذه الرحلة كلها أن يسجّل كل حديث، وكل انطباع في يومه غالباً، وفي أقرب وقت إذا فاته التسجيل في اليوم، وأن يتحرّى الدقة في النقل، والصحة في الرواية، وتسجيل الحديث في لفظ المتحدث، ولغته بقدر الإمكان، فجاءت في الكتاب صور من الأساليب

والآداب المحلية، يستفيد بها مؤرخ الأدب فيما بعد، ويتمثل القارىء ـ بعد أن مضى عليه زمن ـ شخصية المتحدث، وسماته الحقيقية، ويتمثل البيئة التي دونت فيها هذه المذكرات، وما كان يجيش فيها من صراع نفسي، واصطراع فكري، واضطراب اجتماعي، وقلق وتذمر وثورة، وما كان يتمخض به هذا المجتمع من حوادث لم تقع، وشخصيات لم تولد، ومن تطورات لم تتضح، فجاءت هذه المذكرات مجموع صور ناطقة يستطيع القارىء أن يعيش بها في هذه الفترة التي لا تعود أبداً.

وكذلك التزم أن يبدي آراءه وملاحظاته، وانطباعاته على أثر كل مقابلة، أو زيارة، أو حديث أو مشهد، وما أحدثه الحادث من رد فعل، أو أثر نفسي، وأن يسجل كل ذلك في أسلوب صريح مكشوف، بعيد عن الغموض والتحفظ، وعن كل مجاملة وتكلف، فهو وصف وتصوير من إنسان حي، يحمل القلب والعاطفة والعقيدة ويؤمن بمبادىء وقيم ومثل، ويحب هذه البلاد التي يزورها، ويرتبط بماضيها وحاضرها ومستقبلها، ويعتبر نفسه عضواً من أعضائها؛ يشاركها في آلامها وآمالها، ويشاطرها في شقائها وسعادتها، ويرى الدين الإسلامي الذي أكرم الله به هذه البلاد، واختارها لتمثيله ونشره في العالم، المقياس في كل شيء، فيقيس به الأعمال والأخلاق والرجال، وتلك ميزة لهذا الكتاب[1]، لا يجد المؤلف حاجة للاعتذار عنها، ثم يلقي قبل أن يغادر قطراً من الأقطار التي زارها نظرة إجمالية على هذا القطر، ويذكر محاسنه وجوانب الضعف فيه، وما سرَّه في زيارته، وما أحزنه وأثار فيه الاستنكار والإشفاق، من غير أن يحتفل برضا أصدقائه الذين أحبَّهم وأحبُّوه، وبسخطهم وعدم إعجابهم، وقديماً قال الشاعر العربي:

وفي العتاب حياة بين أقوام

(١) إشارة إلى كتاب «مذكّرات سائح في الشرق العربي» صدرت له طبعتان.

مدرسة شبه القارة الهندية العربية والأدبية
* ميزاتها ومنتجاتها[1] *

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

حضـرات الأساتـذة الكبار، وعلمـاء اللغة العـربيـة والآداب، والمشتغلين بالتربية والتعليم، والتأليف والبحث والتحقيق في مختلف أرجاء العالمين الإسلامي والعربي. .

أحييكم بتحية الإسلام، وبتحية القرآن، الذي جمعنا على صعيد حُبِّ اللغة العربية ودراستها، ووصل النهار بالليل، والشباب بالشيب في خدمتها، والغيرة عليها، وإيثارها على لغات الأمهات والآباء، والبلاد والأوطان، فلولا القرآن الذي نزل بهذه اللغة، ولولا الرسول الذي نطق بها، ولولا المكتبة الإسلامية العربية التي هي من أغنى مكتبات العالم، والتي أسهم في تكوينها وتوسيعها وتجميلها علماء العرب والعجم، لما تسنّى لبلد عجمي يعـاني مشكلة اللغات، ويخـوض معركـة صراع الثقافات والحضارات، ولا يرتبط باللغة العربية ارتباطاً عنصـرياً ولا

(١) كلمة تحية وترحيب ألقيت في الندوة العالمية للأدب الإسلامي، المنعقدة في ندوة العلماء بلكهنؤ الهند في ١٢ ـ ١٤ من جمادى الآخرة ١٤٠١ هـ (١٧ ـ ١٩/ من أبريل ١٩٨١ م).

مناخياً، ولا تاريخياً، ولا اقتصادياً وسياسياً، أن يعقد ندوة عالمية في الأدب الإسلامي، ويدعو إليها صفوة الأدباء والباحثين في العالم العربي، ولا يشعر في ذلك بمعنى من معاني «التطفُّل» وحُبِّ الفضول، ولا بشيء من الاقتحام والمغامرة، وتخطي الحدود والآداب، فيلجأ إلى اعتذار وتعليل وتبرير.

إن هذه الندوة العالمية للأدب الإسلامي تعقد في بلاد لم تكن اللغة العربية فيها في فترة من فترات التاريخ لغة النطق والتفاهم، ولغة الديوان والحكومات، ولغة الرسائل والمكاتبات، وإن كان ذلك محسوباً على هؤلاء المسلمين الذين كانوا ولا يزالون يقرأون القرآن باللغة العربية، وهي لغة صلواتهم وعباداتهم. لكن سادتنا العرب ـ وأرجو عدم المؤاخذة ـ لا يُخلوْن عن التبعة، فلو وصل المدُّ اللغوي والثقافي والحضاري الذي احتضن مصر والشام والعراق، إلى أسوار هذه القارة الهندية وتوغل فيها، كما توغل في ربوع الشرق العربي، وربطها الخيط النوراني الذي انبثق من الجزيرة العربية في فجر الفتح الإسلامي، لكان لهذه البلاد شأن غير هذا الشأن، ولما احتجتم إلى وسيط وترجمان.

ولكن بالرغم من أن اللغة العربية لم تكن في يوم من الأيام لغة النطق والتفاهم على مستوى الشعب والجمهور، فإن صلة هذه القارة باللغة العربية وحركة التأليف والتدوين عميقة وقديمة، وقد قدر الله أن تظل هذه البلاد متمسكة عبر القرون والأجيال بعلوم الكتاب والسنة مسايرة لركب التأليف، والإنتاج العلمي السيار، حين ساق إليها في طليعة الدعاة والغزاة، وفي مقدمة الكتيبة المؤمنة المغامرة في أوائل القرن الثاني الهجري، المحدث الكبير الربيع بن صبيح السعدي الذي يقول عنه الجلبي في «كشف الظنون»: هو أول من صنف في الإسلام، أو كان يلي أول المصنفين في الإسلام كما قال بعضهم، وكان قد خرج مع

عبد الملك بن شهاب المسمعي من مطوعة أهل البصرة، فمات بأرض الهند في سنة ستين ومائة وكانت في موته شهيداً خارجاً في سبيل الله، حياةٌ للعلم، وبعث للهمم، وحفز للعزائم، وتأمين لمستقبل هذه البلاد العلمي والتأليفي.

ولم تكن عناية هذه البلاد وأبنائها مقتصرة على علوم الكتاب والسنة التي توافرت لها الدواعي القوية، من إيمان وعقيدة، وحب وعاطفة، وحاجة وضرورة، بل تخطت ذلك إلى اللغة العربية وآدابها، وتاريخ هذه البلاد في خدمة اللغة العربية والعناية بها، والاتصال بأئمة اللغة وأقطابها، واحتضانهم وإيوائهم، قديم. فقد كان الإمام الكبير رضي الدين أبو الفضائل الشيخ حسن بن محمد الصغاني (م ٦٥٠ هـ) - من رواد وضع المعاجم الكبيرة، ودواوين اللغة - من مواليد هذه البلاد فقد ترعرع وبلغ أشده واستكمل دراسته بمدينة لاهور، وكان دائم التردد إلى مسقط رأسه، وبلاد نيطت بها تمائمه، وقد سارت بتصانيفه الركبان، وخضع لعلمه علماء الزمان، قال السيوطي: (إنه كان حامل لواء اللغة)، وقال الذهبي: (إن إليه المنتهى في اللغة)، وقال الدمياطي: (إنه كان إماماً في اللغة والفقه والحديث)، ومن مصنفاته «العباب الزاخر» في اللغة في عشرين مجلداً، و «مجمع البحرين» في اللغة، و «النوادر في اللغة والتراكيب»، وكتب أخرى في أسماء الحيوانات، عدا مؤلفاته في النحو.

وقد ظلت عناية علماء الهند باللغة العربية وآدابها مستمرة على مر العصور والأجيال، ولم تكن هذه العناية تقليدية - سائرة على خط واحد من وضع المعاجم الكبيرة، وتلخيصها - بل كانت لهم فتوح وابتكارات، وزيادات تكاد تكون فريدة في المكتبة العربية العالمية الواسعة، فقد عُنِيَ العلامة محمد طاهر الفتني (م ٩٨٦ هـ) بشرح غريب الحديث، فألف كتابه العظيم «مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف

الأخبار» في خمس مجلدات كبار، يقول العلامة السيد عبد الحي الحسني في كتابه «نزهة الخواطر»: (جمع فيه المؤلف كل غريب الحديث وما ألف فيه، فجاء كشرح للصحاح الستة، وهو كتاب متفق على قبوله بين أهل العلم منذ ظهر في الوجود، وله منة عظيمة بذلك العمل على أهل العلم). ومؤلفات علماء الإسلام كثيرة في موضوع غريب الحديث، كما يعرف أهل هذه الصناعة، ولكن الذي مارس تدريس الحديث الشريف، وكان من المتبصرين الحاذقين لهذا العلم، والذين يواجهون المشكلات في تدريس هذا الفن، وشرح الحديث عملياً، يعرفون ميزة هذا الكتاب، وعلو كعب المؤلف ورسوخ قدمه في فهم الحديث وسعة نظره فيه.

ويعرف أهل البصر، والمشتغلون بالتدريس والتأليف أن موضوع المصطلحات العلمية، وشرحها وتحديد معانيها، والوصول فيها إلى اللباب وفصل الخطاب من أدق العلوم، والمؤلف في هذا الموضوع من أعظم المؤلفين مسؤولية وتحرجاً، فإن المصطلحات كالخارطة للسفن والمراكب والطائرات، فأدق خطأ في خطوطها التي تضبط المراكب والطائرات، وتحدد الجهات والغايات، قد يكون سبباً لضياع هذه البواخر والطائرات، أو انحرافها عن الغاية المقصودة، وقد كان من شجاعة علماء الهند ومغامرتهم، وثقتهم بالنفس، ومكانتهم في الثقافة الإسلامية العربية، أن تناولوا هذا الموضوع الدقيق للتأليف، ومؤلفات أهل الهند في هذا الموضوع هي الفريدة في هذا الباب والخطيب في المحراب، وعليها الاعتماد فيما أُلِّف في فهم المصطلحات العلمية واستخدامها، إذ ألف الشيخ عبد النبي الأحمد نكري كتابه «جامع العلوم» المشهور بدستور العلماء في مجلدين، وألف الشيخ محمد أعلى التهانوي (وكلاهما من رجال القرن الثاني عشر) كتابه «كشاف اصطلاحات الفنون»، وهو كتاب عظيم النفع تلقاه المشتغلون بالعلم في

البلاد بالقبول، وأثنوا عليه لأنه يغني عن مراجعة آلاف الصفحات، ومئات الكتب، وقد جاءت في عصارة دراسات المؤلف الواسعة العميقة، ورحيق معلوماته العذب الصافي، وهو في ذلك كنحلة تمتص من الأزهار والأوراد، وتصبُّ العسل المصفى.

وتُوِّج هذا المجهود العلمي، والعناية الدقيقة المخلصة بعلم اللغة، بمأثرة العلامة السيد مرتضى بن محمد البلكرامي المشهور بالزبيدي، التي تجلت في كتابه العظيم «تاج العروس في شرح القاموس» في عشرة مجلدات كبار، ولا أعرف ـ في حدود علمي ـ أن معجماً في أي لغة من لغات العالم الحية، عُنِيَ به هذه العناية الفائقة، وفكر في شرحه وتنقيحه والزيادة فيه، فأصبح موسوعة لغوية. وقد ولد السيد مرتضى في الهند في قرية لا تبعد عن هذا البلد الذي نلتقي فيه بعداً كبيراً وقد كانت من توابع هذه المدينة، وهي مدينة كبار العلماء والأدباء، والشعراء والمؤرخين، كان في مقدمتهم مولانا السيد غلام علي البلكرامي صاحب «السبع السيارة»، وهي سبعة دواوين له بالعربية، وصاحب ابتكارات وزيادات في الشعر والعروض، وتوليد المعاني، والتفنن في الخيال، وقد شغل كتاب «تاج العروس» سمع الزمان وبصره، فتنافس في انتساخه، والحصول على نسخة منه كبار سلاطين العصر وملوك العالم.

ومما يجب أن يسجل في تاريخ الأدب العربي، وينتبه له المتتبعون لمسيرة الأدب العربي، وتطوراته، أن الهند الخاضعة لنفوذ الفرس الأدبي والثقافي، والتي كانت تعيش على فتات مائدة العرب في اللغة والأدب، أنجبت في مختلف عصورها من استطاع أن يسمو على الأسلوب الأدبي التقليدي الذي كان يسيطر على العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه، بعد أن ظهر كتاب «المقامات» للحريري، على المسرح الأدبي ـ ولا مؤاخذة فإن أبا زيد السروجي كان ممثلاً في

مسرحيات مختلفة ـ فكان المثال الوحيد الذي يحتـذى في الإنشاء والكتابة العـربية، وقـد كان ذلـك كتغير الفصـول، وحلول الربيـع والخريف، أو كالأوبئة التي تؤثر في المزاج تأثيراً عاماً، لا يخلو منها قوي وضعيف، وسليم وسقيم، وقد غشيت العالم العربي، بل العالم الإسلامي، سحابة من تقليد أسلوب الحريري، ولكن ظهر من أفق الهند ـ البعيدة عن مهد اللغة العربية وأساليبها الأصيلة ـ رجال كانوا يبدون كيراعات وحباحب، في ليلة مطيرة مظلمة، كتبوا بقلم عربي أصيل، وفي أسلوب يجري مع الطبع، وهذه الظاهرة الأدبية أو البدعة في شريعة الأدب العربي المتبعة شرقاً وغرباً، تحتاج إلى دراسة عميقة.

وكان من هؤلاء الأفذاذ العلامة محمود الجونفوري ـ وهو من مدينة مجاورة في هذه الولاية الشمالية ـ (م ١٠٦٢ هـ)، فالذي يقـرأ كتابـه «الفرائد في شرح الفوائد» يتعجب لإنشائه المترسل، وأسلوبه العلمي التحليلي، وبعده عن السجع والتنميق الذي كان له سحر على أصحاب الصناعة الأدبية، والشادين باللغة العربية.

وإذا لم تكن الهند المجلّية في مضمار التحرر من قيود السجع والقوافي، والبديع والصنائع اللفظية، وإيثار جانب المعاني على جانب زخرفة الألفاظ، وإرسال النفس على سجيتها، وإطلاق عنان القلم، فقد كان السبق في ذلك، والزعامة العلمية لنابغة العرب، وإمام فلسفة التاريخ، العلامة عبد الرحمن بن خلدون التونسي ولمقدمته العظيمة الفريدة التي هزت العقول والأذواق، وشقت طريقاً جديداً لـلإنشاء والبحوث العلمية، أقول: إذا لم يقدر للهند أن تكون هي المجلّية في هذا المضمار، وقد كان طبيعياً، لأنها كانت في آخر حدود العالم الإسلامي وتحت نير الحكم العجمي السياسي والثقافي، فقد كانت المصلّية في هذا المضمار، إذ نبغ فيها الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي

الله الدهلوي (م ١١٧٦ هـ)، فألف كتابه «حجة الله البالغة»، والكتاب ـ علاوة على مكانته في موضوع أسرار أحكام الشريعة وفلسفة التشريع الإسلامي ـ مثال فريد لسلامة الذوق الأدبي، ونصاعة اللغة، وقوة العبارة وانسجامها، وبعدها عن السجع البارد، وتقليد أسلوب الحريري، وهو يعد بحق النموذج الثاني للنثر الطبعي السلسال، والتعبير العلمي العامر، بعد مقدمة ابن خلدون، والذي يقرأ فصل (المدنية العجمية عند بعثة الرسول ﷺ) في كتاب «حجة الله البالغة» يحار لرشاقة العبارة والتدفُّق البياني، وسهولة اللغة وعذوبتها.

وقد نبغ بعده علماء كتاب في الهند، كانت كتاباتهم في السير والتراجم، والبحوث العلمية والتاريخية تختلف عن كتابات معاصريهم في البلاد العربية الصميمة ومراكز الثقافة العربية، في عذوبة العبارة، وخفة الروح، وتنوع المادة، والترسل، ونخص بالذكر منهم العلامة محسن بن يحيى الترهتي صاحب «اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني» وهو كتاب مشرق الديباجة، عليه رواء العربية الفصحى، ورشاقة الأدب القدير، وعلامة الهند الأمير السيد صديق حسن القنوجي البهوبالي (م ١٣٠٧ هـ)، والمؤرخ الكبير العلامة السيد عبد الحي الحسني (م ١٣٤١ هـ) صاحب «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» في ثمانية مجلدات، والعلامة المحقق الكبير عبد العزيز الميمني صاحب كتاب «أبو العلاء وما إليه» وغيره.

وهنا اسمحوا لي أن ألفت نظركم إلى حقيقة تاريخية أدبية، وأنقل سطوراً من كلمتي التي ألقيتها في مهرجان ندوة العلماء الكبير المنعقد في ٢٥ ـ ٢٨ شهر شوال عام ١٣٩٥ هـ. قلت:

(من سمات علماء الهند البارزة أنهم قادوا الحركة الأدبية الإنشائية في شبه القارة الهندية، وكانوا من الدعائم القوية السامقة التي قام عليها قصر الأدب الرفيع، والنثر الفني بعد ثورة ١٨٥٧ م، وكان كل واحد

منهم مؤسس مدرسة أدبية خاصة لا يزال لها أنصار وأتباع ومقلدون، وكان كثير منهم رائد نشاط جديد في الإنشاء والتحرير والنقد وتاريخ الأدب والشعر، ولا تزال مؤلفاتهم هي المرجع الأصيل والعمدة في هذا الموضوع، ولم يكن في الهند ذلك الفصام النكد بين علوم الدين والأدب العصري ولغة البلاد، ولم تكن تلك الفجوة التي وقعت في بعض البلاد بين علماء الدين والشادين بالأدب والشعر، والهائمين بهما، الفجوة التي جنت على الدين والأدب في وقت واحد).

وكانت مؤسسة ندوة العلماء التي تلتقون في رحابها، في مقدمة من أنكرت هذا الفصام النكد بين الدين والأدب، وتكوين معسكرين متنافسين، معسكر العلماء والدعاة، ومعسكر الأدباء والكُتّاب، في لغة البلاد، والمؤلفين في آدابها، وأنكرت احتكار الأدباء المتزعمين للأدب واللغة والإنشاء، والنقد والتاريخ. وقد تجلت هذه الحقيقة وهذه الاستنكار في عبارة أحد المنتسبين إلى ندوة العلماء؛ اسمحوا لي أن أنقلها منقولة من الأردية إلى العربية والكاتب يتحدث عن رجعية التقدميين من الأدباء، يقول:

(إن الأدب الذي كان أجدر بأن يرفض السير على خط واحد رسمه القدماء، وكان أحق بأن يتعير من الجمود والتقليد من أية مؤسسة علمية ومدرسة فكرية، إن الأدب الذي رضع بلبان الجدة والجراءة والذكاء والتذوق بالجمال، وارتفع أساسه ـ بالتعبير الأدبي ـ على حب الجمال في كل شيء، وعلى الشغف بالأزهار والأوراد، في كل حديقة وروضة، وفي كل غابة وواحة، هذا الأدب قد وقع ـ مع الأسف ـ فريسة العصبية التقليدية، وأصبح أسيراً للعادات والرسوم، وقلما نجد الأدباء والنقاد في هذا العصر يتجاوزون حدود تعريف الأدب والإنشاء الذي وضعه المؤلف الأول أو مؤرخ الأدب القديم، أو يتخطون رسومه التي قررها هو، الأمر الذي جعل كل أديب يترسم خطى الأديب الذي

سبقه في رحلته الأدبية، دون أن يطمح إلى زيادة أو ابتكار، أو تطوير في ذخائر النماذج الأدبية، إنما يتم اختيار عدة أشخاص مثاليين للأدب والكتابة فيقلدهم كل أديب ومؤرخ تقليداً أعمى، ويجترُّ آثارهم وأسلوبهم).

وما أصدق قول شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال تعبيراً عن هذه المدرسة الأدبية التقليدية تقليد الببغاء، حيث قال: (إن هذه المدرسة تدور كثور الطاحون حول محور واحد قديم).

ولقد كانت ندوة العلماء أيضاً أول من نادى بضرورة استعراض المكتبة العربية من جديد، وغربلتها ونخلها وإثارة دفائنها وكنوزها، وإبراز محاسنها وبدائعها، ولو كانت في غير مظانها، وعند من يعتبر من أغنى الناس عن الهيام بالأدب والقدرة على التعبير وأبعدهم عن دست الأدباء والكتاب. كما نادت بوضع مناهج جديدة لتعليم اللغة العربية وآدابها، تعلم الدين والأدب في وقت واحد، وتطبع على السليقة العربية، وتثير المواهب الفطرية، وتعيد الثقة بصلاحية هذه اللغة ومسايرتها لكل عصر وموضوع.

لكل هذه الأسباب، ولهذه الركيزة الأدبية التاريخية، لم يكن من المستغرب أن تنظم ندوة العلماء هذه الندوة العالمية للأدب الإسلامي، وتدعو إليها كبار الأساتذة والمعنيّين باللغة العربية وآدابها، والتربية الإسلامية ومناهجها، وقد كانت الاستجابة الكريمة التي لقيها منظمو هذه الندوة، دليلاً على إخلاص الداعين، وذوق المدعوِّين الذين قطعوا مسافات بعيدة، وتحملوا صعوبات السفر لتلبية هذه الدعوة، وتداول الآراء والفكر في هذا الموضوع الكبير الخطير.

ومرحباً بالقادمين الكرام، وشكراً للأساتذة العظام ـ والحمد لله أولاً وآخراً.

لمحة
عن المدرسة الأدبية الإسلامية الهندية
* كيف نشأت وتكوَّنت، وبماذا تميّزت[1]؟ *

لقد تفاعلت في الهند عوامل ثقافية، وعنصرية، وحضارية، وسياسية، فالهند مهد اللغات والثقافات والفلسفات القديمة، ومن الطبيعي أن يتأثر الشعب المسلم بكل هذا في قليل أو كثير، ونتيجة لهذا التفاعل تكونت مدرسة مستقلّة ذات نفسية خاصة وطابع خاص في الأدب الإسلامي، تمتاز بقوة العاطفة، ورقة الشعور، والدفق والعمق والقدرة على الضرب على أوتار القلب، وإثارة الحُبّ والحنان، والتفنّن في الأنغام والألحان، والحماس الإسلامي، وشدّة التعلق بشخص النبي ﷺ وبَلَديه المشرّفين: مكة والمدينة، والجزيرة العربية الحبيبة، وابتكار معانٍ وأخيلة وتعبيرات لم تُسبَق إليها.

وقد أفاد هذه المدرسة الأدبية كون المسلمين في هذه البلاد في قلة دائماً، وكونهم قد حكموا هذه البلاد ثمانية قرون على الرغم من كثرة عدد المحكومين من غير دينهم، واعتزاز هؤلاء المحكومين الزايد بفلسفاتهم وعلومهم التي لا يعدلون بها علماً وفلسفة، وحضارتهم القديمة التي يعتبرونها في قمّة الحضارات القديمة، وساعدت على ذلك

(١) مقال قدم إلى مؤتمر رابطة الأدب الإسلامي الذي انعقد في دار العلوم ندوة العلماء وحضره عدد كبير من أدباء العرب والهند في يناير سنة ١٩٨٦ م.

أيضاً عنصرية أهل الهند المتطرّفة، التي تعدّ المسلمين دائماً أنجاساً أجانب، وتميّز ـ حتى في المجتمع الهندوسي ـ بين طبقة وطبقة، وإنسان وإنسان، مثلما تميز بين أشرف إنسان وأخس حيوان.

وقد أفاد هذا الواقع المسلمين بصفة عامة، والشعراء والأدباء منهم بصفة خاصة مميّزات نفسية عميقة، في مقدّمتها قوة الصمود أمام الهجمات والتحدّيات ـ سياسية كانت أو فكرية أو فلسفية أو أدبية ـ لأنهم بغير ذلك لا يستطيعون أن يحافظوا على إسلاميتهم وبقائهم أمة ذات عقيدة خاصة، وشريعة معينة، وشخصية متميزة. وأفادهم ذلك أيضاً الولاء الزائد للإسلام، وافتخارهم به، والتغني بأمجاده وأبطاله وعظمائه، وألهمهم ذلك توجيه القريحة الشعرية الأدبية والكتابية، والمقدرة البيانية إلى شعر الملاحم الإسلامية، فنظمت أقوى ملاحم إسلامية شعرية[1]، وأطولها وأجملها في «أوردو» لغة المسلمين ولغة الهند الشعبية الأرقى، وانتشرت في ربوع الهند انتشاراً لم يعرف لأي منظومة تاريخية أو

---

(١) من أكبرها «صمصام الإسلام» للسيد عبد الرزاق الحسني، نظم فيها «فتوح الشام» للواقدي، في أردو، وهي منظومة طويلة تشتمل على خمسة وعشرين ألف (٢٥٠٠٠) بيتاً، وهي في غاية القوة والعذوبة وصدق التصوير وبراعة التعبير، كانت تنشد بمناسبات مختلفة في الأسر الإسلامية، فتحرك الحمية الدينية وتلهب العاطفة الإسلامية. راجع مقال «الكتب التي عشت فيها» للكاتب.

ومنها مزدوجة «مدّ الإسلام وجزره»، المعروف بـ «مسدّس حالي» للشاعر الإسلامي الكبير ألطاف حسين «حالي»، وفيها وصف البعثة المحمدية، وتصوير العصر الجاهلي، ووصف صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وما قاموا به وقام به أتباعهم من دور إصلاحي ثوري بناء رائع في التاريخ الإنساني، وما اتصف به الجيل الإسلامي الأول مع ذكر ما أصيب به المسلمون أخيراً من تقهقر وانحطاط، والمجتمع الإسلامي من تدهور وانتكاس في أسلوب شعري ساحر.

ومنها «شاهنامه إسلام» للشاعر حفيظ الجالندهري، وهو في قمة الملاحم الإسلامية المشهورة في شبه القارة الهندية، ومن الدواوين الشعرية المقبولة الشعبية.

قصصية في بلد من بلاد الإسلام، وكان لها فضل كبير، ودور حاسم في إثارة العاطفة الإسلامية وتنمية النخوة الدينية وتحمّل الصدمات العنيفة، والحوادث العائلية، والكوارث الفردية، في إيمان واحتساب، لأنها تذكر بحكايات البطولات الإسلامية الأولى، واستماتة المسلمين في سبيل الله، وما ظهر من البطولات من السيّدات المسلمات في بعض المواقف، ثم تحمّل المجاهدين الغزاة والأسر والبيوتات، شهادة إخوانهم وأبنائهم، والسيدات بمصاب أزواجهن وأبنائهن، في صبر وشكر، وإيمان واحتساب.

ومن نتائج هذا الواقع الجغرافي التاريخي السياسي، تدفُّقُ شعر المديح النبوي وقوته وتأثيره، ورقّته وعذوبته، فقد ابتكر هؤلاء الشعراء معاني وأخيلة وجاؤوا بنبويّات، لا مثيل لها في الأدب العربي عبر القرون، فقد ضعف هذا الصنف في الشعر العربي ـ بعد قصيدة البوصيري الميمية وبعد نبويات سيدي عبد الرحيم البرعي ـ ضعفاً شديداً، ولا يزال سرّ هذا التدفق والقوة والتأثير موضوع تفكير الباحثين وعلماء الأدب، وقد علّله بعضهم بالبعد والهجر، فلهذين تأثير كبير في تفجير ينابيع القلب والحب، وتوليد المعاني الغريبة، وإثارة الكنوز الدفينة، وقد استعاض كثير منهم عن الرحلة الطويلة المملوءة بالأخطار، في أطول مدة قضاها المسلمون بقصائد المديح. فقد كان الزمن زمن القراصنة البحريِّين، وزمن السفن الشراعية، والطرق غير آمنة، والانتقال من مكة إلى المدينة لم يكن مأموناً، وقوافل الحجاج تتعرّض للخطر والغارة، فاستعاضوا عن السفر بالشعر للتعبير عن حنينهم وأشواقهم، ولم يزل الشعر بريد القلب والشوق، وهو الحمام الزّاجل الذي لا يزاحمه شيء ولا يعوقه شيء، وإذا امتلأت الكأس طفحت، وإذا طفحت فاضت، ولا بد أن يعقب الريّ السّكر، ولا بد أن يعقب السّكر التغنّي،

وما أجمل ما قاله الشاعر العربي:

سقوني وقالوا لا تُغنِّ ولو سقوا جبال سُلَيمى ما سُقيتُ لغنَّت

ثم جاء دور الحكم الإنجليزي الغاشم الحاقد على المسلمين، فقد كانوا منافسهم الأكبر في قيادة الركب الإنساني وتوجيهه الفكري والحضاري، وهم الذين قادوا الثورة عليهم سنة ١٨٥٧ م وتولوا كبرها، وزاد الطِّين بلّة والطنبور غنّة الشعور بالحاجة إلى مواجهة الغزو الثقافي العقائدي الخلقي والحضاري، والاستعمار الداخلي الباطني، وهو أضرّ بكثير من الاستعمار السياسي والإداري، فنبغ جيل جديد من الأدباء والكتّاب والشعراء والمؤلّفين، يقبلون هذا التحدِّي ويعارضون الحكم الإنجليزي وما يحمله من مخطّطات رهيبة دقيقة، لإنشاء جيل جديد من المثقفين يحقّق مآربهم وينفّذ مخطّطاتهم، منسلخ عن الإسلام، بل ثائر عليه مزدرٍ له.

هنالك نهض شعراء عصاميّون عبقريون مثل لسان العصر السيد أكبر حسين أكبر الإلّه آبادي، والعلامة الدكتور محمد إقبال، والشاعر المبتكر ظفر علي خان، فلم ينشؤوا في الجيل المثقف الجديد نخوة إسلامية فحسب، بل قوة المقاومة للتحدّيات الجديدة، وكراهة للحضارة الوافدة الدخيلة المستعبدة، تارة في أسلوب شعري لاذع متهكّم، وتنكيت قارص، كما فعل أكبر الإلّه آبادي[1]، وطوراً في أسلوب جدّي وشعر بليغ يتدفّق قوة وحماساً، ويسيل رقة وعذوبة، وقد أحدثت فيهم الثقافة الغربية موجة ردّ فعل عنيفة في مشاعرهم وتفكيرهم، حولت شعرهم إلى شلّال يتدفّق بقوة وينحدر بقوة.

---

(١) ليرجع للتفصيل إلى كتابنا: «الحضارة الغربية الوافدة، وأثرها في الجيل المثقّف»، كما يراها شاعر الهند الكبير لسان العصر السيد أكبر حسين الإلّه آبادي، طبع مكتبة الصحوة في القاهرة.

وحقيقة تاريخية غريبة أخرى تحتاج إلى دراسة أمينة محايدة، وتحليل نفسي تربوي، وهي أن عدداً كبيراً من الشباب المسلم الذكي من العواصم العربية ذات المركز القيادي في العلوم الدينية والآداب الإسلامية يمّموا الغرب ومكثوا في الجامعات الغربية الرئيسية خصوصاً في إنجلترا وفرنسا، ثم رجعوا إلى أوطانهم بالروح الحرّة المنتقدة الثائرة على أسس الحضارة الغربية ومثلها وقيمها، الواعية لأهداف الاستعمار الغربي البعيدة ومخطّطاته الدقيقة الرهيبة لصياغة الشرق الإسلامي، صياغة غربية إلحادية متنكرة للإسلام، مع الثقة بصلاحية الإسلام لا للبقاء فحسب، بل للقيادة العالمية، ومع الحماس الزائد للإسلام، كما كان الشأن مع فيلسوف الشرق وشاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال، وزعيم حركة الخلافة الأكبر وزعيم حركة التحرير الكبير مولانا محمد علي دفين القدس، ولا أزيد على ذلك بتسمية طائفة من كُتّاب مصر وسوريا والمغرب العربي، والأدباء والمؤلفين منهم، الذين كادوا يحتكرون القيادة الفكرية والأدبية في الشرق العربي الإسلامي فترة غير قصيرة، وكانوا القدوة والمثل الكامل، ليس للشباب الجامعي فحسب، بل للشادين في اللغة العربية، والنقّاد والأساتذة.

أما الدكتور محمد إقبال، فأنا أنقل هنا قطعة من مقدمتي لـ «روائع إقبال»، تصور في قوة وإيجاز أعظم ما اتّصف به من سمات ومميّزات:

(إن أعظم ما حملني على الإعجاب بشعره هو: الطموح، والحب، والإيمان، وقد تجلّى هذا المزيج الجميل في شعره وفي رسالته، أعظم مما تجلى في أي شعر معاصر، ورأيت نفسي قد طبعت على الطموح، والحب، والإيمان، وهي تندفع اندفاعاً قوياً إلى كل أدب ورسالة يبعثان الطموح، وسموّ النفس، وبُعد النظر، والحرص على سيادة الإسلام، وتسخير هذا الكون لصالحه، والسيطرة على النفس

والآفاق، ويغذّيان الحب والعاطفة، ويبعثان الإيمان بالله، والإيمـان بمحمد ﷺ، وبعبقرية سيرته، وخلود رسالته، وعموم إمامته للأجيال البشرية كلها.

إنني أحببتُه وشُغِلتُ به كشاعر الطموح والحب والإيمان، وكشاعر له عقيدة ودعوة ورسالة، وكأعظم ثائر على هذه الحضارة الغربية الماديّة، وأعظم ناقد لها وحاقد عليها، وكداعية إلى المجد الإسلامي، وسيادة المسلم، ومن أكبر المحاربين للوطنية والقومية الضيقتين، وأعظم الدعاة إلى النزعة الإنسانية والجامعـة الإسلامية.

وأشهد على نفسي أني كلما قرأت شعره جاش خاطري، وثارت عواطفي، وشعرت بدبيب المعاني والأحاسيس في نفسي، وبحركة للحماسة الإسلامية في عروقي، وتلك قيمة شعره وأدبه في نظري)[1].

أما محمد علي فقد تجلّت عبقريته في مقالاته الإنجليزية التي كان يحلّي بها صدر صحيفته الأسبوعية الإنجليزية (COMRADE) والتي كانت تعتبر مثالاً بليغاً رائعاً للأدب الإنجليزي المتهكّم اللاذع، الذي لا يقدر عليه إلاّ من تذوّق اللغة كأبنائها وأدبائها ـ فنوع التهكّم والتنكيت في لغة من أدق أنواع الأدب التي يصعب تقليدها ـ وكانت مقالاته ملتهبة بالحماس الإسلامي، والنقد اللاذع للحكم الإنجليزي، يحرص على قراءتها الحُكّام الإنجليز، ويتلقفون كل عدد بلهف وشوق، وكذلك افتتاحياته لصحيفة «همدرد» الأردية التي خلفت «كومريد» فكانت قوية جرئية، وله شعر قوي في أردو، أبدى فيه عواطفه الإسلامية وميوله الجهادية والحب للنبي ﷺ، وحب الموت فداء للإسلام والشهادة في

---

(١) «روائع أقبال» طبع دار القلم الكويتية، و«المجمع الإسلامي العلمي» بندوة العلماء، الهند، ص/ ١١ و٢٥.

سبيله، حفظته الصدور وفاضت به الألسنة والأقلام.

أما ظفر علي خان منشىء صحيفة «زميندار» السيارة، فكان من كبار شعراء عصره، ينظم القصائد الطوال عفو الساعة وفيض الخاطر، وله اقتدار عجيب على القوافي الصعبة والبحور العويصة، وشعره حداء مثير للركب الإسلامي الناعس، ورجز مطرب للجيش الإسلامي المرابط، يمتاز بجزالة اللفظ وحلاوة الجرس، وتدفّقٍ كتدفق العين المتفجّرة، وما قاله من شعر في المديح النبوي من أقوى وأبلغ ما قيل فيه في العصر الذي أدركته، وقد كانت أعداد صحيفته تصادر وتمنع بين آونة وأخرى وكانت صحيفته تغرّم بغرامات باهظة، وهو لا يمتنع عن النقد اللاذع للحكومة الإنجليزية وللهندوس المتطرّفين المهاجمين للإسلام والمسلمين.

لقد كان للحرب الكونية الأولى (١٩١٤ م ـ ١٩١٨ م) وحملات الحلفاء، وتضعضع الخلافة العثمانية آثار سيئة على البلاد الإسلامية لا سيما الهند الإسلامية التي هبّ شعبها المسلم يداً واحدة لمناصرة الخلافة العثمانية وتأييد قضيتها، وجعلها قضية الموت والحياة وشغله الشاغل، وما كادت الخلافة العثمانية تنهار أمام الحملات الشرسة التي كان يشنُّها الحلفاء، حتى دَبَّ الحماس في قلوب مسلمي الهند واشتعلت العاطفة الإسلامية والجذوة الإيمانية بصفة عامة.

هنالك طلع على أفق القيادة الإسلامية ـ فضلاً عن الصحافة الإسلامية ـ هلال جديد أصبح بدراً في مدة قريبة، وهو صحيفة «الهلال» لمولانا أبي الكلام آزاد زعيم حركة الخلافة الكبير، ورئيس المؤتمر الوطني العام، ووزير التربية الأول في الجمهورية المستقلة، فكانت مقالاته في هذه الصحيفة في غاية القوة والبلاغة الأدبية، كأنها تكتب بقلم من نار، وهو الذي أدخل في اللغة الأردية الكلمات والتعبيرات

القرآنية فامتزجت بها وزادت في قوة اللغة والبيان، وألفها الأدباء والكتّاب، ويصح أن يقال إنه انتهج أسلوباً إسلامياً قرآنياً أدبياً أردياً جديداً، فكان أدب «الهلال» السحر الحلال، والماء الزلال، وفي القوة الشلّال، النازل من مكان عال.

وكان من حسن حظّ الشعب المسلم الهندي، ومن تيسير الله تعالى للدعوة الإسلامية والأدب الإسلامي، أن الشعراء لم يتجهوا في تلك الفترة اتجاهاً سلبياً ساخراً من الإسلام هازئاً بقيمه ومثله، بل كان فحول الشعراء، وأصحاب المدارس الشعرية المتميزة يغلب عليهم الإيمان بالله والحب للرسول، فكان أئمة الشعر الأردي في الزمن الأخير شعراء مسلمين محتشمين، عدد منهم يلتزمون التزاماً إسلامياً كاملاً، في مقدمتهم وعلى رأسهم الشاعر فضل الحسن حسرت موهاني، وشوكت علي فَانِي بديواني، وأصغر كوندوي، وسيد علي سكندر جكر مراد آبادي، وخواجه عزيز الحسن مجذوب، وأمجد الحيدر آبادي، وحفيظ جالندهري، وإقبال أحمد سهيل، وماهر القادري، وعلي سكندر وجد الأورنك آبادي، ونشور واحدي[1]، وآخرون يطول ذكر أسمائهم، فلم يبتلَ الأدب في الهند بمثل ما ابتلي به في الشرق العربي بالفوضى الفكرية، وتحرُّر من جميع القيود والآداب[2].

ونبغ بجوارهم كتّاب في أردو يعتبرون منشئي مدارس أدبية ممتازة، وأساليب مرموقة نموذجية، كلهم إسلاميون في فكرهم وعقيدتهم يجمعون بين الدراسات العميقة الواسعة، والأفكار الناضجة

---

(١) الكلمات الأخيرة في الأسماء يتلقبون بها في الشعر على طريقة شعراء الفارسية.

(٢) يستثنى من هذه الكلمة شاعران متفلتان من ربقة الدين، هما بشير حسن جوش، وفيض أحمد فيض.

المختمرة، والأهداف المعيّنة الصالحة، والأقلام الرشيقة البليغة، نخص بالذكر منهم العلامة السيد سليمان الندوي، ومولانا عبد السلام الندوي، والأديب الكبير مولانا عبد الماجد الدريابادي، ومولانا مناظر أحسن الكيلاني، ومولانا عبد الباري الندوي، والشيخ معين الدين الندوي، والأستاذ خليق أحمد النظامي، والأستاذ سعيد أحمد الأكبر آبادي، والسيد صباح الدين عبد الرحمن، وذلك على سبيل المثال والإجمال، لا الاستيعاب والتقصّي.

هذا في ما يختص بالكتابة الإسلامية والبحوث العلمية، أما في مجال التحقيق والدراسات، والتحليل العلمي، والدراسات المقارنة، التي قد يكون لها من التأثير على الناشئة، والشباب المثقف، ما لا يكون في أكثر الأحيان للأدب والشعر ـ لأن الخضوع للفكر والعقل يكون أكثر عمقاً وأبعد أثراً من الخضوع للشعور والعاطفة والحاسّة الأدبية ـ فقد نبغ في الهند في آخر القرن التاسع عشر المسيحي، وأوائل القرن العشرين كتّاب محققون ومؤرخون نوابغ دونوا التاريخ الإسلامي، وأبرزوا السيرة النبوية، وعرضوا الحضارة الإسلامية، وأرخوا لعدد من نوابغ المسلمين ومفكريهم وقادتهم في أسلوب جذاب، وفي دراسة تاريخية دقيقة واسعة، وفي تحليل علمي موضوعي، وألبسوا كل ذلك ثوباً قشيباً برّاقاً، وعُنُوا بصفة خاصة بما وجهه المستشرقون من مطاعن إلى الإسلام، واتهامات للمسلمين، وما أثاروه من شكوك وريب في الشريعة الإسلامية وحضارة الإسلام، وتدوين العلوم الإسلامية وتاريخها وأحوال حكّام المسلمين وسياستهم ومواقفهم، وفي مقدمة أولئك الكتاب وعلى رأسهم العلامة شبلي النعماني صاحب «السيرة النبويّة» المعروفة في مجلدين ضخمين وصاحب كتاب «الفاروق» الذي هو من أقوى الكتب التي ألفت في سيرة الخليفة الراشد والحاكم الإسلامي العادل عمر

ابن الخطاب رضي الله عنه، بل عن بطل من أبطال أي أمة في أي بلاد، وهذا عدا مؤلّفاته القيمة عن سيرة الإمام أبي حنيفة النعمان، وعن سيرة الإمام الغزالي، ومولانا جلال الدين الرومي، والمأمون الخليفة العباسي، أما كتاباه: «مكتبة الإسكندرية» و«الجزية في الإسلام» فقد كان لهما فضل كبير في إزالة مركّب النقص عن نفوس الناشئة المسلمة، وفي إنشاء الاعتزاز بتاريخهم في نفوسهم، وكذلك كتاب «الانتقاد للتمدن الإسلامي» للكاتب جرجي زيدان، وقد أدى بذلك فرض كفاية عن العلماء المسلمين في العالم الإسلامي، ليس عن علماء مصر فقط ـ الذين كانوا أحق بذلك، كما قال العلامة السيد رشيد رضا الذي نشر هذا الكتاب في مصر ـ بل عن علماء المسلمين كافة.

وقد أكمل هذه السلسلة في البحث الإسلامي وتوَّجَها بكتب لا يوجد نظيرها في المكتبة الإسلامية المعاصرة تلميذه النابغة العلامة السيد سليمان الندوي الذي أكمل «السيرة النبوية» لأستاذه، وضم إليها خمسة مجلدات، أصبحت بها موسوعة في السيرة النبوية، وفي علم التوحيد، والعقائد، والعبادات، والأخلاق، والسياسة، والمعاملات، وكتابه الفريد «خطبات مدراس» الذي نقل إلى العربية بعنوان: «الرسالة المحمدية»، وكتابه «أرض القرآن» يعني أرض النبوات، و«صلات الهند بالعرب» و«الخيّام» و«سيرة أم المؤمنين عائشة» و«الإمام مالك»، و«الملاحة عند العرب»، نموذج من الطراز الأول للتحقيق والدراسات الطويلة المضنية، والمجهود العلمي المستنفد للطاقة، وكله في أسلوب أدبي بليغ، وكتابة عالية رشيقة.

ويضاف إلى هذه القائمة المشرفة، اسم الكاتب الإسلامي الكبير والداعية الشهير الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي، منشىء الجماعة الإسلامية، صاحب الكتابات الإسلامية القوية والكتب القيمة، ككتاب

«الجهاد في الإسلام» و «تنقيحات» و «تفهيمات»، ورسائل كثيرة أخرى في القضايا الإسلامية المعاصرة، وهو رئيس تحرير مجلة «ترجمان القرآن» التي كانت مدرسة فكرية إسلامية مستقلة، وهو صاحب أسلوب خاص يخلو عن الاعتذار والدفاع، ويمتاز بالثقة والاعتزاز مع سلاسة وانسجام، وتعبير أدبي علمي، هذا مع الاحتفاظ ببعض نقط الخلاف التي لا محل لها هنا.

ومن صنع الله تعالى بالجيل المسلم الصاعد أنه قيّض له في هذه الفترة الحالكة من الحكم الإنجليزي ـ الذي كان يحمل معه منهجاً تعليمياً يصوغ الجيل الجديد صياغة غربية ـ مؤلفين للكتب الدراسيّة لتعلم اللغة الأردية ـ المعترف بها رسمياً ـ حاذقين لَبقين مسلمين في العقيدة والسلوك، كان لهم فضل في وقاية الجيل الجديد من الإفلاس الإسلامي الثقافي، والانحراف الديني العلمي، وقد أسندت وزارة التربية ولجنة المقرّرات الدراسية تأليف سلسلة من الكتب لتعليم لغة أردو إلى الأستاذ محمد إسماعيل الميرتهي، وهو من كبار الأدباء والمؤلفين والشعراء الذين يراعون نفسية الأطفال ومداركهم ويستطيعون تطعيم اللغة بالدين، وحب الأخلاق الفاضلة، ويقتدرون على الشعر السلس البليغ المحبّب للأطفال، فألف سلسلة من الكتب يبلغ عدد أجزائها سبعة كتب، كانت كما يقول العلامة السيد عبد الحي الحسني في تاريخ شعراء أردو «كل رعنا»: إنه لم توفق وزارة التربية بالهند لتأليف كتب أفضل منها للأطفال، ولا يزال كثير من الكتاب والأدباء والأساتذة في مثل سنّي يحفظون الشيء الكثير من الشعر البليغ المنسجم الذي جاء في هذه السلسلة، والذي يغرس الإيمان وإجلال الله وتقدير نعمه، وحب الأخلاق القويمة في قلوب القراء.

زد إلى ذلك أن أبناء البيوتات، وكثيراً من أطفال الهنادك في

الطبقات الاستقراطية والمثقفة، كانوا يدرسون اللغة الفارسية، وكان من الكتب المقررة للدراسة والعمود الفقري في هذا المنهج كتاب «كريماً ما مقيماً» و «كلستان و بوستان» للشيخ مصلح الدين الشيرازي الملقب في الشعر بـ «سعدي»، وهما من الأدب العالمي لتعليم الأطفال وتعليم الأخلاق والحكم وتجارب الحياة في القمة، وقلّما ألفت كتب في لغات أخرى ـ في حد معلوماتنا ـ أرقى أسلوباً ولغة، وأكثر تأثيراً في النفوس، من الكتابين المذكورين، وكان لكل ذلك أثر عميق، باق في نفسية المتعلمين، أقل مظاهره الاحترام للدين ولأهل الفضل والاحتشام والتماسك.

ويلي كل ذلك مجال الروايات التاريخية، والقصص الأدبية، وكل منا يعرف تأثيرها وسحرها على العقول والقلوب، وقدرتها على قلب الحقائق، وتصوير القبيح جميلاً، والجميل قبيحاً، وقد وفق الله عدداً من الكتّاب القديرين والمنشئين المترسّلين لتأليف كتب في الروايات التاريخية الإسلامية، وفي التعليم للسلوك الإنساني الشريف، والحياة العائلية الكريمة، وحسن العشرة. كان في مقدمة كتّاب الروايات التاريخية الأديب الكبير الشيخ عبد الحليم «شرر» اللكهنوي، ومن رؤساء الطبقة الثانية (الكتّاب في الحياة العائلية الكريمة وحسن العشرة) الأديب الكبير والعالم الضليع الشيخ نذير أحمد الدهلوي، وبعده الأستاذ راشد الخيري، وكان لكتبهم رواج كبير في الأسر المسلمة الواعية.

وهنالك حقيقة تاريخية أخرى لا يمنع الحياء عن تقريرها وتسجيلها، فإنها أمانة تاريخية، وهي أن من سمات علماء الهند البارزة، أنهم قادوا الحركة الأدبية الإنشائية في شبه القارة الهندية، وكانوا من الدعائم القوية السامقة التي قام عليها قصر الأدب الرفيع والنشر الفني بعد ثورة ١٨٥٧ م، وكان كل واحد منهم مؤسس مدرسة أدبية خاصة لا

يزال لها أنصار وأتباع ومقلّدون، وكان كثير منهم رائد نشاط جديد في الإنشاء والتحرير والنقد وتاريخ الأدب والشعر، ولا تزال مؤلفاتهم هي المرجع الأصيل والعمدة في هذا الموضوع، فلم يكن في الهند ذلك الفصام النَّكِد بين علوم الدين والأدب العصري ولغة البلاد، ولم تكن تلك الفجوة التي وقعت في بعض البلاد بين علماء الدين والشادين بالأدب والشعر، والهائمين بهما، تلك الفجوة التي جنت على الدين والأدب في وقت واحد!.

في ضوء هذه الخلفيات والمراحل التي مرّ بها الشعب المسلم الهندي، والعوامل التاريخية والنفسية التي خضع لها بحكم الطبيعة وسنة الله تعالى في خلقه، تكونت مدرسة إسلامية أدبية هندية لها مميزاتها وطابعها، لا يسوغ لمؤلف في تاريخ الأدب العربي والثقافة الإسلامية العامة أن يغض الطرف عنها ويبخس حقها، وبسبب كل ذلك اختلفت نظرة المعنيّين بالآداب واللغات، والمدرسين والدارسين للغة العربية وآدابها ـ بصفة خاصة ـ إلى الأدب العربي وتقويمه فلا يستطيعون ـ بحكم ارتباطهم بالإسلام ونظرهم إلى اللغة العربية كلغة القرآن والحديث والسيرة ومفتاح مكتبة الإسلام ـ أن يفصلوا بين الأدب العربي والدين بل إنهم أصبحوا يعتقدون بعد دراستهم الأمينة المخلصة لثروة اللغة العربية وكنوزها الأدبية، أن الأدب العربي يستمدُّ من الدين القوة والحيوية والجمال والتأثير، وكما قلت في مقدمة كتابي: «مختارات من أدب العرب»[1]:

(وقد كان هؤلاء الكتّاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة، يكتبون لأنفسهم ويكتبون إجابة لنداء ضميرهم وعقيدتهم، مندفعين منبعثين، فتشتعل مواهبهم ويفيض خاطرهم، ويتحرّق قلبهم فتنثال

(١) «مختارات من أدب العرب»، ص/١٥، دار الشروق، جدة، المملكة العربية السعودية.

عليهم المعاني، وتطاوعهم الألفاظ، وتؤثر كتابتهم في نفوس قرائها، لأنها خرجت من قلب فلا تستقر إلّا في قلب).

كل هذا حمل أبناء هذه الدار التي تلتقون فيها أيها السادة! على أن يؤلّفوا لأطفال المسلمين الذين يدرسون اللغة العربية في المدارس الهندية مقررات دراسية على هذا المنهج التربوي الإسلامي، من المرحلة الأولى إلى المرحلة الأخيرة، من قصص للأطفال، إلى سلسلة من القراءة العربية، إلى مجموعات من «منثورات» و «مختارات»، إلى رسائل عرض ونقد للأدب العربي، إلى كتاب في تاريخ الأدب العربي (مع إشادة بالمدرسة العربية الهندية) لا يزال في دور التكوين والتأليف.

وبذلك نادى الكتّاب والباحثون في هذه المؤسسة بالنظر الجدّي، والتأمّل الفاحص في هذا الموضوع، واستعراض المكتبة العربية من جديد، ذلك مع عدم إنكار قيمة أدب الفن وأدب التسلية والترفيه، وأدب الغزل والمدح، والأدب الذي ظهر لتحقيق أغراض مؤقّتة شخصية وجماعية، فلكل قيمته، ومكانه الفسيح في مكتبة الأدب وفي قلوبنا، بل نتمتع به ونتذوقه، ونراه حاجة من حاجات الحياة، ومطلباً من مطالب الفطرة البشرية السليمة المرحة، ولكنها محاولة لإعطاء الأدب الهادف المفيد حقه، وإحلاله المحل اللائق والاهتمام به الاهتمام الجدير به.

ونحمد الله على أن هذا النداء لم يكن صيحة في واد، ونفخة في رماد، ولقد تجاوبت له الأوساط الأدبية في مهد اللغة العربية، وكبار الأساتذة والنقاد في الجامعات العربية، وقد سبق بعضهم إلى تبنّي هذه الفكرة واحتضانها، والدعوة إليها، نذكر تقريراً للواقع، واعترافاً بالفضل أستاذين جليلين، هما الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا ومعالي الشيخ السيد عبد العزيز الرفاعي، فقد أنشأا مكتبة عامرة من قصص التاريخ الإسلامي وتعريفاً بأبطال المسلمين وزعمائهم، والمغمورين من الأدباء

والشعراء من الطراز الأول، يستحقان بذلك شكر علماء التربية وأصحاب الدعوة للفضيلة وعشّاق الأدب.

وعلى هذه الفكرة والمبدأ، انعقدت ندوة عالمية للأدب الإسلامي في ١١ ـ ١٣ من جمادى الأخرى ١٤٠١ هـ (١٧ ـ ١٩ من أبريل ١٩٨١ م) في جامعة ندوة العلماء حضرها لفيف من كبار الأدباء والكتّاب وأساتذة الأدب العربي في الجامعات السعودية، والخليج العربي، ومصر، وعلى هذه الفكرة، ولتمديدها وتوسيعها، وترسيخها، وتدعيمها، تألفت رابطة الأدب الإسلامي وأعلن عن قيامها في شهر صفر عام ١٤٠٥ هـ (الموافق لشهر نوفمبر عام ١٩٨٤ م) بدعوة من عدد من الأدباء والنقاد وأساتذة الجامعات، ولا سيما بعض الأساتذة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه، فها هي الندوة الأولى لهذه الرابطة الحبيبة ندعو الله تعالى ونرجوه أن تكون بداية عهد جديد، وانتفاضة أدبية إسلامية، في فجر القرن الخامس عشر الهجري فيكتب المؤرخون في المستقبل أنه كان قرن النهضة الأدبية الإسلامية، كما كان قرن الصحوة الإسلامية في العالم الإسلامي بالمعنى العام ـ وبالله التوفيق.

أدب الحُبّ والعاطفة واحترام الإنسان والإنسانية في شعر مولانا جلال الدين الرومي*

الدعوة إلى الحب:

لقد دعا الشيخ مولانا جلال الدين الرومي إلى الحب والعاطفة دعوة سافرة وذكر عجائبه وتصرفاته في بسط وتفصيل، فقال:

(إن الحُبَّ يحول المرّ حلواً، والتراب تبراً، والكدر صفاءاً، والألم شفاء، والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة، وهو الذي يلين الحديد، ويذيب الحجر، ويبعث الميت، وينفخ فيه الحياة، ويُسوِّد العبد).

(إن هذا الحب هو الجناح الذي يطير به الإنسان المادي الثقيل في الأجواء ويصل من السمك إلى السِّماك، ومن الثرى إلى الثريا).

إذا سرى هذا الحب في الجبال الراسيات، ترنحت ورقصت طرباً:

﴿فلما تجلى ربه للجبل جعله دكّاً، وخرّ موسى صعقاً﴾.

ويذكر مولانا جلال الدين أن الحب غني أبيّ، لا يحتفل بالملك والسلطان، من ذاقه مرة لم يسغ شراباً، يقول: (إن الحب غني عن العالمين إن كان الشغف بالمحبوب ونفي ما سواه جنوناً فهو سيد المجانين.

إنَّه ملك الملوك تخضع له أسرة الملوك وتيجانهم، ويخدمه الملوك كالعبيد). ويقول: (إن الحب كامن كالنار، ولكن الحيرة بادية، ومُتواضع ولكن نفوس الملوك الذين يملكون النفوس له خاشعة).

وإذا ذكر الرومي هذا الفقر الجسور والحب الغيور، أخذته نشوة ونادى بأعلى صوته: (بارك الله لعبيد المادّة وعُبّاد الجسم في مُلكهم وأموالهم، لا ننازعهم في شيء، أما نحن، فأسارى دولة الحب التي لا تزول ولا تحول).

(إن جميع المرضى يتمنون البرء من سقمهم، إلا أن مرضى الحب يستزيدون المرض، ويحبون أن يضاعف في ألمهم وحنينهم، لم أر شراباً أحلى من هذا السم، ولم أر صحة أفضل من هذه العلة).

(إنها علة ولكنها علة تُخلِّص من كل علة، فإذا أصيب بها إنسان لم يصب بمرض قط، إنها صحة الروح، بل روح الصحة، يتمنى أصحاب النعيم أن يشتروها بنعيمهم ورخائهم)، وكأن جلال الدين يعارض الشاعر العربي في قوله:

ولي كبد مقروحة من يبيعني بها كبداً ليست بذات قروح
أباها عليّ الناس، لا يشترونها ومن يشتري ذا علة بصحيح؟

فلو عرف هذا الرجل الذي كان ينادي على كبده قيمة هذه الكبد المقروحة، لما تنزل إلى بيعها والتخلي عنها، ولو عرف الناس قيمتها لاشتروها بملك الدنيا وعافية الأجسام، فما قيمة كبد لم تقرح؟ إنها مضغة لحم وقطعة حجر!.

(إن هذا الحب البريء السامي يصل بالإنسان إلى حيث لا توصله إلّا الطاعات والمجاهدات، لم أر طاعة أفضل من هذا «الإثم»، عند من يسميه إثماً، إن الأعوام التي تنقضي بغيره لا تساوي ساعة من ساعات الحب).

(إن الدم الذي يسيل في سبيله لا يشك في طهارته، إن شهيد الحب لا يحتاج إلى الغسل «إن دماء الشهداء أفضل من الماء الطهور، يا لها من خطيئة إن كانت خطيئة»! يقول: إن المحبين الذين بذلوا مهجهم وأحرقوا قلوبهم لا تنفذ عليهم القوانين العامة، ولَا يخضعون للنظم السائدة).

ويضرب الرومي لذلك مثلاً بليغاً، فيقول: (إن القرية التي خربت لا تفرض عليها الجبايات والضرائب).

ويقارن بين الحب البريء، والعقل الشاطر فيقول: (إن الحب تراث أبينا آدم، أما الدهاء فهو بضاعة الشيطان، إن الداهية الحكيم يعتمد على نفسه وعقله، أما الحب فتفويض وتسليم، إن العقل سباحة قد يصل بها الإنسان إلى الشاطىء، وقد يغرق، وإن الحب سفينة نوح لا خوف على رُكّابها من الغرق).

هذا، وبحر الحياة هائج ليس السباحة فيه بالخطب اليسير، فخير للإنسان أن يأوي إلى سفينة مأمونة من الغرق، وهي سفينة الإيمان والحب، يقول: (لقد رأينا كثيراً ممن يحسنون السباحة قد غرقوا في هذا البحر اللُجّي ولكنا ما رأينا سفينة الإيمان والحب تغرق).

(ثم إنه يفضل حيرة المحبين على حكمة الحكماء الباحثين، ويحث على الحرص عليها والتنافس فيها، لأن الحكمة ظن وقياس، والحيرة مشاهدة وعرفان).

إنه يقول: (ليس لكل أحد أن يكون محبوباً، لأن المحبوب بحتاج إلى صفات وفضائل، لا يرزقها كل إنسان، ولكن لكل أحد أن يأخذ نصيبه في الحب وينعم به. فإذا فاتك أيها القارىء العزيز أن تكون محبوباً، فلا يفتك يا عزيزي أن تكون محباً، إن لم يكن من حظك أن

تكون يوسف، فمن يمنعك من أن تكون يعقوب؟ وما الذي يحول بينك وبين أن تكون صادق الحب، دائم الحنين؟).

ويزيد الشيخ على ذلك: (إن لذة المحب لا تعدلها صولة المحبوب، فلو عرف المحبوبون ما ينعم به العشاق المُتيَّمون، والمحبون المخلصون، لتمنوا مكانهم، وخرجوا من صف المحبوبين السعداء إلى صف المحبين البؤساء).

إلى من يوجه هذا الحب؟:

ولكن إلى من يوجه هذا الحب الذي هو نور الحياة وقيمة الإنسان؟ (إن الحب خالد لا يجدر إلّا بالخالد، إنه لا يجمل بمن كتب له الفناء والأفول، إنه حق الحيّ الذي لا يموت، الذي يفيض الحياة على كل موجود)، ويستدل الرومي على ذلك بقصة سيدنا إبراهيم ويتمثل بقوله: «لا أُحِبُّ الآفلين».

(إن هذا الحب يجري من صاحبه مجرى الدم، إن وضع في محله وصادف أهله، فإنَّه شمس لا ينتابها الأفول، وزهرة ناضرة لا يعتريها الذبول، عليك بهذا الحب السرمدي الذي يبقى، ويفنى كل شيء، الذي يدور عليك بكؤوسه التي تروي ظمأك! عليك بهذا الحب الذي ساد به الأنبياء وحكموا!).

لا داعي إلى اليأس:

ولكن ليس للمحب الطموح أن يشكو قصوره ويحتقر نفسه، متعللاً بسمو المحبوب وعلو مكانته وغناه عن العالمين، فما للتّراب ورب الأرباب؟!.

إن المحبوب الحقيقي هو الذي يحب أن يحب، ويجذب إليه من انجذب: ﴿الله يجتبي إليه من يشاء، ويهدي إليه من ينيب﴾، يقول

مُشجّعاً: (لا تقل لا سبيل إلى ذلك الملك الجليل، فأنا عبد ذليل، لأن الملك كريم، يدعو عبده ويسهل له السبيل).

ويعود فيتغنى بهذا الحب ويقرظه في سرور ونشوة، ويقول: (إنه فيما يبدو للناظر علة علاجها عسير، وصاحبها في تعب وعذاب، ولكنه إذا احتملها وثابر عليها، وصل إلى المعرفة الحقيقية، الأبدية).

(إن الحب منشؤه انكسار القلب، وجرح الفؤاد، إنه علة لا تشبهها علة، إن علة المحب تختلف عن كل علة، إن الحب اصطرلاب الأسرار الإلّهية).

ثم يذكر أن هذه العلة، وإن كانت في ذات نفسها علة، ولكنها شفاء للأسقام النفسانية والأمراض الخلقية، إن الأمراض التي أعيت الأطباء، وتعذر منها الشفاء وقطع منها المصلحون الرجاء، تبرأ وتزول بلفتة من هذا الحب، فإذا برىء منها السقيم الذي يئس من صحته، هتف في سرور وطرب (حياك الله أيها الحب المضني! يا طبيب علتي وسقمي! يا دواء نخوتي وكبري! يا طبيبي النطاسي! يا مداوي الآسي!).

هذا، لأن الحب شعلة إذا التهبت أحرقت كل ما سواه، فلا كبر، ولا خيلاء، ولا جبن ولا خوف، ولا حزن ولا حسد ولا بخل، ولا عيب من العيوب النفسية، إن موجة الحب تجرف الحشيش، وتسري في النفس سريان النار في الهشيم، (إن الحب شعلة تحرق كل ما سوى المحبوب)، إن التوحيد سيف إذا سله صاحبه قطع كل ما عدا الله، فحيّاك الله وحياك أيها الحب الذي لا يحتمل الشرك!.

ويمسك مولانا بعد هذا النفس الطويل في مدح الحب ووصفه، ويقول: (إن حكاية الحب لا تنتهي، وتفنى الدنيا ولا تنقضي عجائبه،

لأن الدنيا لها نهاية وغاية، والحب وصف من لا يفنى ولا يموت).

عالم القلب:

ولكن لا سبيل إلى هذا الحب إلاّ بالقلب الحي الفائض بالحياة والحرارة، وقد طغت الناحية العقلية في عصره كما قدمنا، وتخطت حدودها، وتضخمت على حساب القلب والعاطفة، فمهما استنارت العقول فقد بردت القلوب، وفقدت حياتها وحرارتها، وأصبحت المعدة قطباً تدور حوله رحى الحياة، وقد أثار الرومي حديث القلب وماله من مكانة وكرامة في حياة الإنسان، وما تحـويه من عجائب وكنوز، وذكر أن الإنسان يحمل في جسمه روضة، أكلها دائم وربيعها قائم، وأنه يحمل في نفسه الصغيرة عالماً أوسع من هذا العالم المادّي، لا يخـاف عليه من عدو، ولا يطرقه لص.

(إن القلب بلد عامر مأمون، وحصن محكم مصون، وروضة مباركة لا ينفد نعيمها، ولا ينضب معينها، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها).

وذكر أن حدائق العـالم لا تطول حيـاتها، ولا تـأمن الآفات والعاهات، ولكن نخلة القلب دائمة النضارة والثمار (إن الحدائق تبطىء في النماء وتسرع في الفناء)، أما القلب فسريع النمو، بطيء الزوال: (إن روضة الجسم لا تلبث أن تصبح صريماً هشيماً، فينادي صاحبها: واحسـرتاه! أمـا روضـة القلب، فلا تزال مخضرة مثمـرة، فينادي صاحبها: وافرحتاه!).

فالذي يحاول أن يحافظ على صحته وشبابه، ويبقى شاباً قوياً، لا تتحقق أمنيته، والذي يعتني بقلبه ويحسن تربيته يبقى شاب الروح، نشيط الجسم، قرير العين، ناعم البال، جذلان مسروراً، (عليـك بالقلب حتى تدوم شاباً، تتجلى في وجهك الأنوار فيشرق).

(عليك بالقلب حتى تبقى زاخر الحيوية والنضارة مثل الصهباء، متهللاً كزهرة ناضرة ووردة باسمة).

ولكن لا تغرنك كلمة (القلب)، فليس هذه القطعة التي تخفق في صدرك، وتتجمع فيها الشهوات والمطامع، ليس القلب هو الذي لا يذوق طعم الحب، ولا يعرف معنى اليقين، ولا يملك شيئاً من الشوق، والذي لا تتفتح زهرته ولا يشرق ليله، فليس هو القلب، إنما هو قطعة من حجر أو خشب.

(إنه ضيق مظلم مثل قلب اليهود، لا نصيب له من حب الملك الودود، إنه لا يشرق ولا ينير، ولا ينشرح ولا يتسع).

إنه ليس بين هذا القلب الميت وبين القلوب الحية إلاّ الاشتراك في اللفظ، والشبه في الجسم، كما أن الماء الذي يجري في العيون الصافية والأنهار الجارية يسمى ماءاً، والذي يختلط بالطين والوحل ويرى في المستنقعات يسمى ماءاً كذلك، ولكن الأول يروي الظمأ وينقي الثوب، والثاني تغسل منه اليد، هذا هو الفرق بين القلب والقلب، إن قلوب الأنبياء والأولياء لتعلو على السماء، أما قلوب أشباه بني آدم، فهي قلوب أشباه القلوب، وليست بقلوب، فإذا قلت: (قلبي) فانظر ماذا تقول!.

تقول: (قلبي! قلبي! فهل تعرف أن القلب من أمانات السماء، إن الحمأ لا شك يحمل ماءاً، ولكنك لا ترضى أن تغسل به يدك، لأنه إذا كان ماءاً فهو ماء يغلب عليه الطين والوحل، فلا تُسمِّ ما يخفق في صدرك: القلب، إن القلب الذي هو أعلى من السماوات العلى، هو قلب الأنبياء والأصفياء).

ولكنه يسلّي قارئه ولا يريد أن يكسر قلبه ويثبط همته، فيقول:

(إن سلعتك التي لا يرغب فيها مُشترٍ، قد اشتراها الكريم تكرماً وتفضلاً، إنه لا يرفض قلباً من القلوب، لأنه لا يقصد به الربح).

ثم ينصح قارئه بالانطلاق من هذا القفص الذهبي الذي يسمى (المعدة) والطيران في أجواء القلب الفسيحة، والاطلاع على عجائب خلق الله، والتنعم بلذة الروح، يقول: (إن المعدة وعبادة المادة هو الحجاب الصفيق بينك وبين ربك، فإذا رفعت هذا الستر لم يكن بينك وبين ربك حجاب، تخطَّ حدود المعدة، وتقدم إلى قلبك، تأتك تحيات الرحمن من غير حجاب).

كرامة الإنسان وشرفه:

لقد تواضعت الحكومات الشخصية المستبدة، والفلسفات الخاطئة، والأديان المحرفة، على الاستهانة بقيمة الإنسان والحطّ من قدره وشرفه، وقد نشأ ـ بتأثير الحروب الطاحنة التي كانت لا تكاد تنقطع، وفساد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ـ مقت شديد في الناس للحياة، وتبرم من امتدادها واستمرارها، وقنوط من المستقبل وشعور عميق بالمهانة أو ما يسمى اليوم «بمركّب النقص» وأصبح الإنسان حقيراً في عينه.

وجاء بعض المتصوّفين العجم، فدعوا دعوة متحمسة إلى الفناء الذي تمثله الجملة المأثورة في الأدب الصوفي «موتوا قبل أن تموتوا» وغلوا في إنكار الذات حتى أصبح الاعتداد بالنفس وحب الذات الذي يتوقف عليه الكفاح والحركة والنشاط، جريمة خلقية، وحجر عثرة في سبيل الكمال الروحي، وقد أسرف الدعاة والمؤلفون في الحث على اكتساب الصفات الملكية، والانسلاخ من اللوازم البشرية، حتى أصبح الإنسان يستنكف من إنسانيته، وأصبح يعتقد أن رقيه في الثورة على الإنسانية، لا في الاحتفاظ بإنسانيته، وأنه كلما كان أبعد من الإنسانية

وأشبه بالملائكة كان أقرب إلى السعادة والكمال.

ونشأ ـ بتأثير هذه الأفكار والفلسفات، وانحلال المجتمع، وجور الحكومات ـ أدب متشائم، وشعر متشائم، ينظر إلى العالم وإلى الحياة بالمنظار الأسود، يدعو إلى الفرار من الحياة والتشاؤم من الناس، والنقمة على الآباء في جنايتهم على ذريتهم كما فعل «أبو العلاء المعري» في عصره، وكانت نتيجة هذه العوامل القوية الطبيعية أن فقد الناس عامة الثقة بنفوسهم، والأمل في مستقبلهم، والرغبة في حياتهم، وأصبح الإنسان في هذا المجتمع المتبرم الضجر كاسف البال، منكسر الخاطر، ضعيف الإرادة، محطم الأعصاب، قد يحسد الحيوانات في حريتها، والجمادات في سلامتها وهدوئها، لا يعرف لنفسه قيمة، ولا لإنسانيته شرفاً، ولا يعرف ذلك الجو الفسيح الذي هيأه الله لطيرانه وتحليقه، ولا يعرف تلك الكنوز البديعة، والقوى الجبارة، والمواهب العظيمة التي أودعها الله في باطنه، ولا يعرف أنَّه قد خلق ليكون (خليفة رب العالمين في هذا العالم الفسيح)، و (وصياً عليه)، وأن الله أخضع له هذا الكون، وما كان سجود الملائكة لأول بشر إلا إشارة لهذا الخضوع، فإنهم هم الذين يتصرفون في هذا الكون بأمر الله، ويبلغون رسالاته، فإذا خضعوا فقد خضع له الكون بالأولى.

في هذا المجتمع الثائر على الإنسانية الذي كفر بالإنسان وقيمته ومركزه في هذا العالم، قام مولانا جلال الدين الرومي يمثل الفكرة الإسلامية الصحيحة في شعره الرنان، ويثير كرامة الإنسان المطمورة في أنقاض الأدب المتشائم، والشعر المتراجع المنهزم، وبدأ يتغنى بكرامة الإنسان وفضل الإنسانية في حماسة وإيمان وبلاغة، حتى دبَّ في المجتمع دبيبُ الحياة، وأصبح الإنسان يعرف شرفه وكرامته، وترنح بهذا الرجز والحداء القوي (الأدب الإسلامي) كله، وردده الشعراء،

وضربوا على وتره، وانطلقت في عالم التصوف موجة جديدة تستحق أن تسمى (الاعتزاز بالإنسانية).

يقول: (إن الله قد خص الإنسان بأحسن تقويم، فقد قال: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾، وإن هذا اللباس الفضفاض قد فصل على قامة الإنسان، فلا يطابق كائناً آخر). ويحث قارئه على دراسة سورة (التّين) والتدبّر في معانيها، وأن يحسب لكلمة ﴿ أحسن تقويم ﴾ حساباً خاصاً، فإنها ميزة للإنسان لا يشاركه فيها غيره.

ثم يزيد على ذلك، ويرجع إلى سورة (الإسراء) ويذكِّر بقوله تعالى: ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم ﴾، ويقول للقارىء: (هل وجه هذا الخطاب الكريم وهذا الأسلوب من التكريم إلى السماوات والأرض أو الجبال؟ إنه لم يوجه إلاّ إلى هذا الإنسان الذي يستهين بقيمته، ويجهل مكانته، إن الله قد توجك ـ أيها الغافل ـ بتاج الكرامة، وخصك بقوله: ﴿ ولقد كرّمنا ﴾ وحلّى جيدك بالمنحة الخالصة، فقال: ﴿ أعطيناك ﴾ كلمة لم يقلها لأحد).

إنه يقول: (إن الإنسان خلاصة هذا الكون، ومجموع أوصاف العالم). يتمثل في هذا الجسم الصغير ما شئت في العالم من خيرات وكنوز، وبدائع وعجائب، إنه ذرة حقيرة انعكست فيها الشمس، فإذا طلعت لم يبد كوكب، إنه قطرة صغيرة انصبَّ فيها بحر العلم، وثلاثة أذرع من الجسم انطوى فيها العالم، يقول: (إن الإنسان غاية هذا الخلق، لأجله خلق العالم، وهو القطب الذي يدور حوله رحى الكون تحسده الكائنات، وقد فرض الله طاعته على جميع الموجودات. إن كل ما في هذا العالم من جمال وكمال إنما خلق لأجلك ويطوف حولك، أنت الذي يحسده المقربون، لست في حاجة إلى جمال مستعار، فأنت جمال الدنيا، وواسطة العقد، وبيت القصيد، الإنسان جوهر، والفلك

عرض، كل ما عداك فرع وظل، أنت الغرض، إن خدمتك مفروضة على جميع الكائنات، إنه عارٌ على الجوهر أن يخضع لعرض).

ولا يقتصر الرد على ذلك، بل يقول: (إن الإنسان مظهر لصفات الله، وهو المرآة الصادقة التي تجلّت فيها آياته)، ويقول: (إن الذي يتراءى في الإنسان ـ من الكمالات والمحاسن ـ عكس لصفات الله، كعكس القمر المنير في الغدير الصافي، إن الخلق كالماء النمير تتجلى فيه صفات الله، وينعكس فيه علمه وعدله ولطفه، كما ينعكس ضوء الكوكب الدري في الماء الجاري).

ولكنه يشعر بقصوره وعجزه في وصف الإنسان، وضخامة المهمة ودقتها، ويعلن بصراحة وشجاعة:

(إذا صرحت بقيمة هذا الممتنع[1] احترقت واحترق المستمع).

ثم يتساءل: هل يجرؤ أحد أن يساوم هذا الإنسان الغالي ويمني نفسه بشرائه؟ هل يجوز لهذا الإنسان أن يبيع نفسه ـ مهما تضخم ثمنها ـ.

ثم يندفع مخاطباً الإنسان، ويقول في تلهف وتوجع، وفي شيء من العتاب والأنفة: (يا من من عبيده العقل والحكمة والمقدرة، كيف تبيع نفسك رخيصة؟).

ثم يقول: لا محل للمساومة، فقد تمت الصفقة، وتحقق البيع: (إن الله اشترانا وخلصنا من المساومات والمقاولات إلى آخر الأبد، فالشيء لا يباع مرتين).

ثم يحث الإنسان على أن يعرف قيمته، ولا يرضى إلا بأكرم

(١) يعني به الإنسان.

المشترين ويقول: (ابحث لك ـ إن كنت باحثاً ـ عن مشتر يطلبك ويبحث عنك، والذي منه بدايتك وإليه نهايتك).

ويلاحظ الشاعر أن من بني آدم من لا يستحق هذا الوصف (أشباه الرجال ولا رجال)، الذين هم فريسة نفوسهم، وقتلى شهواتهم، لا يعرفون من الإنسانية إلاّ ما يفوق فيه الحيوان، من الشبع والري والشبق.

ويقول بكل صراحة: (إن هؤلاء ليسوا رجالاً، إنما هم صور الرجال، هؤلاء الذين يحكم عليهم الخبز، وقتلت الشهوات فيهم الإنسانية).

وقد ندر وجود الإنسان الحقيقي في عصره، كما ندر في عصر غيره، حتى أصبح في حكم عنقاء المغرب، والكبريت الأحمر، وحتى اضطر الباحثون أن يبحثوا عنه بمصباح ديوجانس، وقد حكى الرومي حكاية لطيفة في هذا الموضوع في ديوان شعره، فقال:

(رأيت البارحة شيخاً يدور حول المدينة وقد حمل مشعلاً، كأنه يبحث عن شيء، فقلت: يا سيدي! تبحث عن ماذا؟ قال: قد مللت معاشرة السباع والدواب وضقت بها ذرعاً، وخرجت أبحث عن إنسان عملاق وأسد مغوار، لقد ضاق صدري من هؤلاء الكسالى والأقزام الذين أجدهم حولي، فقلت له: إن الذي تبحث عنه ليس يسير المنال، وقد بحثت عنه طويلاً فلم أجده، فقال: إنني مغرم بالبحث عمن لا يوجد بسهولة، ولا يعثر عليه في الطرقات)[1].

(١) من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الأول.

دور محمد إقبال في توجيه الأدب والشعر[1]

سادتي وإخواني! إنني أستحيي أمام الله تبارك وتعالى، ومن حضر من الإخوان أن أذكر في جوار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وفي ظلّ جدار مسجده العظيم[2]، شخصاً غير شخص الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأن أشيد به وقد قال الشاعر العربي القديم:

ولما نزلنا منزلاً طلّه الندى أنيقاً وبستاناً من النُّور حاليا
أجدّ لنا طيب المكان وحسنه مُنىً فتمنّينا فكنت الأمانيا

وهذا هو المكان الذي طلّه الندى، طلّه ندى الرسالة السماوية الأخيرة، والصحبة النبوية العطرة، فلا يجوز إلاّ ذكر من نالت به هذه المدينة الشرف، ونالت به الإنسانية الحياة الجديدة، والمعنوية

---

(١) كلمة ألقيت في المدينة المنورة في قاعة مكتبة الملك عبد العزيز في احتفال عقده النادي الثقافي، ليلة الثلاثاء في ٢٤/ من ربيع الآخر سنة ١٤٠٥ هـ ما بين المغرب والعشاء.

وقد غصّت القاعة على سعتها بالمستمعين، وفيهم كبار العلماء والأساتذة والشباب المثقف والمعنيّون بالأدب والشعر، واضطر كثير إلى الوقوف خارج القاعة لعدم وجود مكان للجلوس، وقد انتهى الحفل قبل صلاة العشاء في المسجد النبوي الشريف، ونقلت الكلمة من الشريط المسجل، نقلها عبد الرشيد حسين الندوي وتناولها المحاضر بشيء من التحرير والتنقيح.

(٢) القاعة التي ألقيت فيها هذه المحاضرة على مقربة من المسجد النبوي الشريف.

الحقيقية. ولكنني سأتحدث عن رجل كان قوي الصلة عميقها بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا هو المُبرِّر الوحيد للحديث عنه في هذا الجوار الكريم، ونحن على غلوة سهم ـ كما يقول العرب ـ من المسجد الشريف.

إن شاعرنا العظيم محمد إقبال كان ـ وقد شهدت ذلك بعيني وأشهد بذلك بجوار المسجد ـ إذا ذكرت المدينة ـ فضلاً عن الرسول نفسه صلى الله عليه وآله وسلم ـ دمعت عينه ولم يتمالك، وقد قال بيتين من الشعر بالفارسية معناهما:

(لقد لامني إخواني واستغربوا توجّهي إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على كبر سنّي، وأنا في سرور وحنين، ونشيد ورنين، وقالوا هذا إرهاق وتكليف بما لا يطاق، فقلت لهم: يا إخواني! ألا تعرفون أن الطائر يهيم على وجهه في الصحراء ويحلّق في الفضاء، فإذا أدبر النهار وأقبل الليل، تذكّر وكره ورفرف بجناحيه إلى وكره، يطير إليه ليأوي فيه، والمدينة وكر الروح ووكر العقيدة ووكر الإيمان بالنسبة إلى المسلم، فكيف لا أطير إلى وكري حين دنا أصيل حياتي).

إخواني وسادتي! إنني أتصور الأدب كائناً حيّاً له قلب حنون، وله ضمير واعٍ، وله نفس مرهفة الحسّ، وله عقيدة جازمة، وله هدف معيّن، يتألم بما يسبّب الألم، ويفرح بما يثير السرور، فإذا لم يكن الأدب كذلك فإنه أدب خشيب جامد، أدب ميّت خامد، أشبه بالحركات البهلوانية، والرياضات الجمبازية، فالأدب ليس أداة تسلية، وإلهاء نفس وإزجاء وقت (أو قتل وقت كما يقول بعض الأدباء) فحسب، وإن الأدب من أكبر الوسائل للوصول إلى الأهداف النبيلة، وللتأثير في النفس الإنسانية، واسمحوا لي أن أقرأ أمامكم سطوراً تدل على ما كان يعتقده شاعرنا العظيم محمد إقبال وهي تدل على نظرته إلى الأدب، وعليها

بنى أدبه، وعلى ذلك قامت مدرسته الشعرية الفكرية الفلسفية الهادفة.

يعتقد محمد إقبال أن الأدب لا يصل إلى حد الإعجاز، حتى يستمدَّ حياته وقوته من أعماق القلب الحي، ويسقى بدمه.

نقلت هذا المعنى في كتابي: «روائع إقبال» إلى العربية، ومنه أقتبس هذه السطور:

(يا أهل الذوق والنظر العميق، أنعِم وأكرِم بنظركم، ولكن أي قيمَة للنظر الذي لا يدرك الحقيقة؟ لا خير في نشيد شاعر، ولا في صوت مغنّ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة والحماس).

أنتم تعرفون أيها السادة! قيمة نسيم السحر عند الشعراء والأدباء، وأهل القلوب الواعية الحية، ولكنه يقول:

(لا بارك الله في نسيم السحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلّا الفتور والخمول، والذويّ والذبول، إن غاية الإحسان في فن من فنون العلم والأدب لوعة الحياة الدائمة، ما قيمة شرارة تلتهب سريعاً وتنطفىء سريعاً؟ وما قيمة لؤلؤة كريمة أو صدفة لامعة لا تحدث اضطراباً في الأمواج ولا اضطراباً في البحار؟ لا نهضة للأمم إلّا بمعجزة، ولا خير في أدب ولا شعر إذا تجردا عن تأثير عصا موسى)[١].

هذه هي نظرة إقبال إلى الشعر والأدب، وقد كان ذلك في الحقيقة ثورة في تاريخ الأدب وفي تاريخ الشعر، وفي عالم الأدب والشعر، إن الله سبحانه وتعالى قد قيّض في هذا العصر الأخير رجلاً جمع بين دراسات عميقة دقيقة، للفلسفات القديمة والفلسفات الحديثة، وللفنون والآداب، فقد عاش محمد إقبال في أوربا فترة طويلة في كبرى جامعاتها

---

(١) روائع إقبال، ص/ ٧٤، طبع المجمع الإسلامي العلمي ندوة العلماء، لكهنؤ ـ الهند.

وقدّم رسالات علمية ذات قيمة، وعاش بين كبار النوابغ وكبار المفكرين في أوربا، ولكن الله سبحانه وتعالى اختاره لرسالة إسلامية إنسانية عالمية، واختار هو لتبليغ رسالته لسان الأدب ولسان الشعر، ولسان الأدب هو لسان الضمير ولسان الذوق ولسان النفس المضطرمة المضطربة، وقام برسالته خير قيام، وأحدث تأثيراً من أعمق ما عرف من التأثير في الأدب والشعر، إنه أنشأ مدرسة جديدة في الشعر، وأثر في تفكير الشعراء والأدباء، وأحدث تراكيب جديدة وأخيلة جديدة، ومعاني جديدة.

ويرجع الفضل في ذلك إلى عدّة عوامل، أولاً قوة العقيدة، وقد كان قوي العقيدة، ولا أعني بذلك أنه كان قوي العقيدة في صحة الإسلام، هذا والحمد لله يسعد به كثير من الناس، وكلّنا نرجو الله أن نكون عند هذا الحدّ، ولكنه كان قوي العقيدة في صلاحية الإسلام للخلود، وأنه هو الرسالة الأخيرة المختارة، الرسالة الوحيدة التي تستطيع أن تجدف سفينة الحياة، وهو الذي يستطيع أن ينقذ العالم من براثن الجاهلية والوثنية، وعبادة الإنسان، وعبادة الأوثان، وعبادة الشهوات، وعبادة البطون والمعدات، إنه كان قوي الإعجاب بشخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وبمكانته المنيرة للسبل، وخاتم الرسل، ومُقْتَدى الجميع وإمام الكلّ، الذي رفع من قيمة غبار الأرض فجعله إثمداً للعيون، وصيقلاً للقلوب[1]، لقد قام كشاعر وأديب بدور فريد، وأثّر في الجيل المثقف الجديد في شبه القارة الهندية تأثيراً لا يعرف لأحد من أقطاب الفكر ومن نوابغ هذا العصر، وما من شاعر ولا أديب حتى ولا كاتب جاء بعده، إلاّ وقد تأثر به في قليل أو كثير، أقول ذلك

(١) إشارة إلى الأمة التي لم يكن يحسب لها حساب فأصبحت قائدة للأمم، وصاحبة وصاية وإشراف على العالم.

وتاريخ الأدب هوايتي وموضوعي، ما من أديب وشاعر في شبه القارة الهندية إلاّ وقد تأثر بإقبال في الألفاظ وفي التعبير وفي التراكيب، وفي الأخيلة وفي الاستعارات والمجازات، وليس لأحد أن يـدّعي أنه قد تحرّر من هذا الأثر، وأنه لم يتأثّر بإقبال، حتى الذين كان اتجاههم غير اتجاهه أو عكس اتجاهه، إنهم خضعوا له من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون.

وهذا هو سرّ الشخصية القوية، فإن الأدب لا يقدر على التأثير حتى يكـون وراءه شخصية قـوية، تفـرض أثرهـا، وتفرض فكـرها ومدرستها ومنهج تفكيرها، على هذه اللغة وعلى الشعراء والكتّاب، وقد كان ذلك في العصر القديم من مولانا جلال الدين الرومي (م ٦٧٢ هـ)، الذي فرض شخصيته الفكرية الأدبية على مدارس العجم كلها الأدبية والشعرية، فبقي تأثيره يعمل في مجال الأدب والشعر، والتفكير والبحث طيلة قرون، وكذلك بعض المعدودين مثل الشيخ مصلح الدين سعدي الشيرازي (م ٦٩١ هـ) وغيره، وقد أحصيت الكتب والرسائل التي كتبت عن إقبال فبلغ عددها ألفين (٢٠٠٠)، ويعتقد بعض الثقات الدقيقين الذين لا يلقون القول جزافاً، أنه ما نال شاعر أوروبي في اللغات الحية ـ مثل اللغة الإنجليزية والألمانية والفرنسية والفارسية والعربية ـ مثل هذا الاهتمام ـ سواء بسيرته أو شاعريته أو مدرسته الفكرية ـ كما نال إقبال، لا شكسبير (SHAKESPEARE) ولا ملتون (MILTON)، ويرجع السبب في ذلك لقوة شخصيته أولاً، وقوة العقيدة ثانياً، وقوة العاطفة ثالثاً، إن الأدب إذا تجرّد مـن العـاطفة القوية كان محاكاة أو مضاهاة، وكان أشبه بمسرحية تمثّل، ودور تقليدي يعمل، فقوة العاطفة هي التي تضفي على الأدب القوة والخلود، وصلاحية الانتشار، والحلول في قرارة النفوس، والأديب إذا لم تكن عنده العاطفة فإنه أشبه بممثّل ـ ولا

مؤاخذة ـ وكان محمد إقبال قد أكرمه الله بقوة العاطفة.

كذلك لا بد أن يكون للأديب والشاعر ـ بل أتوسع في القول فأقول لا بد أن يكون للأمة ـ هدف معيّن وأن يكون لها مثلٌ كامل. يقول إقبال: (إنني رجعت إلى الله تبارك وتعالى وشكوت إليه ما تنال هذه الأمة الإسلامية في هذا العصر من الهوان والذل، فكان الجواب ألا تعلم أن هذه الأمة تملك القلوب ولا تعرف المحبوب، تملك الحب ولا تعرف إلى أين توجّه هذا الحب). أجل لا بد للأديب والشاعر، ولا بد لصاحب الرسالة وللجيل وللمجتمع وللمدرسة، لا بد أن يكون لهؤلاء مركز حب يوجهون إليه حبهم الدافق، ومن النعم التي أكرم الله بها شاعرنا محمد إقبال أن جعل الإسلام مركز حبه، فكانت لديه قوة العقيدة وقوة الاعتزاز بهذا الدين، إنه مع دراساته الفلسفية الواسعة العميقة، كان يرى أن الإسلام هو دين الإنسانية والرسول صلى الله عليه وآله وسلم هو المثل الكامل للإنسانية، فإذا ذكره ترنّحت عواطفه وجاشت نفسه وفاضت عينه.

إنني أذكر شاهداً على ذلك، كان أحد كبار الأمراء وأصحاب الولايات في الهند، زمن الحكم الإنجليزي قد دعاه لدراسة بعض الصكوك والوثائق القديمة التي أعطاها الملوك المغول لآبائه، وليترجمها إلى الإنجليزية، فقد كان محمد إقبال محامياً كبيراً ودارساً للحقوق فهيّأ له مكاناً من أحسن ما يمكن، وأثّثه أحسن تأثيث يقدر عليه أمير وصاحب ولاية وحكم، وهيّأ له كل ما تقع إليه الحاجة من أسباب الراحة، ثم تخوّف أن يكون هنالك نقص أو فراغ، فدخل غرفته فجأة، فرآه مستلقياً على الفراش في الأرض، ولم ينم على السرير الذي قد هيّىء له، فقال: سامحني يا معالي الدكتور! لماذا تنام على هذا الفراش وتترك السرير، فتوقف قليلاً، فلما ألحّ قال: والله تذكّرت أن سيدي الذي

أنتمي إليه، والذي يؤول إليه كل الشرف وكل السعادة في حياتي كان ينام على بساط متواضع على الأرض فكيف يطيب لي النوم على هذا السرير الأثير، والفراش الناعم، ودمعت عينه، وأثّر ذلك على الأمير وإن كان هندوسياً. ومحمد إقبال نفسه يقول في شعره:

(إن السيّد الذي داست أمته تاج كسرى كان يرقد على الحصير، إن السيد الذي نام عبيده على أسرّة الملوك كان يبيت الليالي لا يكتحل بنوم، لقد لبث في غار حراء ليالي ذوات العدد فكان أن وجدت أمة، ووجد دستور، ووجدت دولة)[1].

هذه قوة العاطفة التي فقدناها يا إخواني، إننا نقرأ لأديب وكاتب ـ ولا مؤاخذة ـ فيبدو لنا من وراء الستار ممثّلاً قديراً... إنه يعبر عن نفسه بكلمات بليغة، وبأسلوب رفيع، ولكن لا تؤثر هذه الكلمات في النفس، ولا يبقى أثرها طويلاً، فننفض الأيدي من هذه الكلمات بسرعة، أما الشعر الحيّ الذي يبقى أثره عميقاً طويلاً، ويسيطر على التفكير والمشاعر، فهو الشعر الذي يخرج من القلب فيصل إلى القلب، وكل ما خرج من القلب وصل إلى القلب، أما ما خرج من العقل فيصل إلى العقل، والذي خرج من المخّ يصل إلى المخّ، وهو كثير، ولكن الشيء الذي يخرج من أعماق القلب يصل إلى أعماق القلب ويبقى فيها، هذا هو الأدب الحقيقي، هذا هو الأدب الذي يحتاج إليه، لا أقول العالم الإسلامي فقط بل يحتاج إليه العالم الإنساني كله، اتّخمنا يا إخواني من هذا الأدب الطامي الذي يطلع علينا صباحاً ومساءاً، والذي نرى فيه صوراً وتماثيل لا حياة فيها، إننا نحتاج الآن إلى أدب ينفخ في نفوسنا حياة جديدة وروحاً جديدة، هذا هو الأدب الحيّ، وقد

---

(١) «أسرار خودي» (الفارسية)، «روائع إقبال» ص/٤٥.

أشاد القرآن بقيمة اللسان البليغ وقوته فوصف نفسه بأنه قرآن عربي مبين، إن القرآن لم يكن يحتاج إلى شيء خارجي أبداً، إنه سبحانه وتعالى غنيّ عن العالمين، ولكنه يصف القرآن بأنه قرآن عربي مبين، ويقول: ﴿ وما أرسلنا من رسول إلاّ بلسان قومه ليبيّن لهم ﴾[1]، ليس معنى ذلك أنه أرسل الرسل بلسان قومهم الذي يفهمونه فحسب، بل معنى ذلك أنه أرسلهم بأبلغ بيان، هذا هو اللسان المعنّي في القرآن، أما اللسان الذي يعبر به الطفل والإنسان الذي لا يكاد يبين، فليس هو المقصود وكذلك الرسول ﷺ قال: «أنا أعربكم، أنا قرشيّ واسترضعت في بني سعد بن بكر»[2]، إن الرسول ﷺ يعطي للأدب قيمته ويقول: «إن من البيان لسحراً وإن من الشعر حكمة»[3]، وكان أفضل أفراد هذه الأمة أبلغهم، ترون في خطب أبي بكر الصديق المعاني الحية، وترون فيها قطعاً بيانية فيّاضة مشرقة، وكذلك خطب الخلفاء الراشدين وكبار الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وفي مقدمتهم سيدنا علي رضي الله عنه، على ما هنالك من كلام منحول في «نهج البلاغة»، ولكن الذي صحّ منه لا يزال في قمة الأدب، وكذلك كان كبار الدعاة عندنا في تاريخ الإسلام الإصلاحي والعلمي، كانوا من كبار البلغاء، هذا سيدنا عبد القادر الجيلي (م ٥٦١ هـ) كان من العبّاد الزهّاد وكبار المخلصين المنقطعين إلى الله، ولكن تقرأون خطبه المحفوظة التي يوثق بها، فتشعرون أن هنالك رعوداً تقصف وصواعق تنزل، وبحاراً تزبد وتقذف، وهذا ما نحتاج إليه.

إن محمد إقبال له فضل كبير في أنه استخدم شاعريته الموهوبة

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤.

(٢) سيرة ابن هشام، ج/١، ص/١٦٧ رواية عن ابن إسحق.

(٣) أخرجه الترمذي وأبو داؤد عن ابن عباس رضي الله عنه.

السليقية لصالح الإنسانية، واستخدمها لصالح الإسلام، إنه كان يستطيع أن يتصدّر دست الأدباء والشعراء فيسلمون له الزعامة والرئاسة، وقد نال ذلك كثير من إخوانه المعاصرين، ولكنه أبى إلّا أن يستخدم كل شاعريته وكل مواهبه الشعرية والأدبية لخدمة الإسلام والإنسانية، فأعاد بذلك الإيمان والثقة بالإسلام، والحبّ للرسول عليه الصلاة والسلام، أعادهما إلى نفوس ملايين من الشباب في شبه القارة الهندية، والأقطار التي تتكلم الفارسية وتفهمها مثل أفغانستان وإيران، ويا ليته استخدم اللغة العربية لشعره ورسالته، إنه كان يعرف اللغة العربية وكان مدرّساً لها في جامعة لندن نيابة عن أستاذه البروفسور نكلسون (NICHOLSON) مدة من الزمان، ولكنه لم يكن بمكانة من يقول فيها الشعر، ولما عرضت عليه ترجمتي لبعض مقطوعاته الشعرية أعجب بها وفهمها وتذوّقها، وأعرف أنه كان يفهم اللغة العربية، ولكنه لم يستطع أن يستخدمها في شعره.

إن العالم العربي والحمد لله غنيّ بكبار العلماء، غنيّ بالمفكّرين، غنيّ بالمؤلفين، غنيّ بالجامعات، غنيّ بالمكتبات، ولكنه لم يرزق شاعراً عبقرياً مثل إقبال، لقد كان شوقي أمير الشعراء في عصره ومصره، وله مواقف إسلامية ونغمة إيمانية في الشعر العربي الحديث، ويليه حافظ إبراهيم، ولكنه ما جاء على أفق العالم العربي من المغرب إلى الشرق من يقوم مقام محمد إقبال، فيقول الشعر الإسلامي القوي البليغ، المثير الذي يحرّك أوتار القلب، ويكهرب الجوّ ويتغلغل في أحشاء المجتمع العربي الإسلامي وفي أحشاء الأدب العربي[1]، وهذا هو الدور القيادي الثوري في الأدب والشعر الذي مثّله محمد إقبال في عصره وبيئته.

---

(١) إن عدم تقدّم الشعر في العالم العربي كما تقدم النثر والكتابة، وعدم نهوض شاعر =

إنني أنتهز هذه الفرصة الكريمة في هذا البلد الكريم وفي هذه الأمسية المباركة، فألفت نظر المعنيِّين بالأدب والكتابة ودراسة الأدب وتاريخ الأدب أن يعنوا بهذا الجانب الحسّاس الحاسم في أدبنا العربي، الذي يستطيع أن يغير الاتجاه من السقيم إلى السليم، ومن هوى النفوس إلى الأهداف النبيلة، إن القرآن يصف الأدب السقيم بكلمة لا أبلغ منها فيقول: ﴿زخرف القول غروراً﴾ نحن في عهد الزخرفة، نحن نعيش في أدب مزخرف، ولكن حاجتنا وحاجة هذا العهد وحاجة العالم العربي بصفة خاصة، هي الأدب الهادف السليم، الدافق بالحيوية المتدفق بالقوة الذي يحمل رسالة سامية سماوية، إنسانية إسلامية عالمية.

هذه كلمتي لهذه المناسبة، أكتفي بها لأن الوقت قصير ولا بد أن ندرك صلاة العشاء في المسجد الشريف إن شاء الله.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

= إسلامي كبير في الشرق العربي والمغرب الإسلامي، مثل ألطاف حسين حالي صاحب المنظومة التي سارت في الهند مسير الأمثال «المدّ والجزر في حياة المسلمين»، والسيد أكبر حسين الإلّه آبادي المعروف بأكبر، ومحمد إقبال، وظفر علي خان صاحب الشعر الإسلامي القوي البليغ، وحفيظ جالندهري صاحب الملحمة الإسلامية المشهورة بـ«شاهنامه إسلام»، وكلهم نبغوا في شبه القارة الهندية، إن هذا الأمر موضوع يجب أن يركز عليه الباحثون في الأدب والنقد وتاريخ الأدب في البلاد العربية، ويبحثوا عن الأسباب الداعية إلى ذلك.

كتاب جديد في تاريخ الأدب العربي

وبعـد، فما تحقق وظهر جلياً في العصور الأخيرة، أن تاريخ الأمم والحكـومـات، والحضـارات والثقافات، والمجتمعات، والبيئات، حتى تاريخ العلوم والآداب ـ بما فيها تاريخ الأدب والشعر ـ خاضع في كثير من الأحوال لاتجاه المؤلف وذوقه، وفي بعض الأحيان لأهدافه الدقيقة وأغراضه البعيدة، فإن الباحث يجد لكل ما يريده، مادة غنية منثورة مبعثرة في كتب التـاريخ، والقصص والحكـايات، والمحـاضرات والفكاهات، حتى في كتب الرحلات والمذكرات، لو جمعت في مكان واحد، بلباقة كتابية وقدرة تأليفية، لكونت كومة من الدلائل الواضحة والبراهين الساطعة على أنه كان يسود هنالك لون خاص من الحياة على المجتمع كله، وعلى أن الأدب والشعر، والإبداع والابتكار، والعبقرية البيانية أو الخيالية، كانت تدور حول محور خاص، وتتدفق من منبع خاص، قد تكون النهامة بإشباع الغرائز، والتمتع الزائد بالحياة والاندفاع المتهور إلى التيارات أو الترفيه والتسلية، والوصول إلى أغراض مادية، فمن اقتصر على قراءة كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني وكتاب «ألف ليلة وليلة» من النثر العربي أو ديوان بشار بن برد، وأبي نواس، من الشعر العربي، اقتنع بأن المجتمع الإسلامي العربي في العصر العباسي، كان مجتمعاً مترهلاً بطراً ـ وفق التعبير القرآني ـ.

يضـاف إلى ذلك أن المؤرخ أو المؤلف في موضوع وصف حضارة وتحليل عنـاصـرهـا وتـركيبها النفسي والحضاري، لو اقتصر على كتاب البخلاء للجاحظ، أو كتب في حكايات المتطفلين، والعيارين، استطاع أن يثبت أن المجتمع في العصر العباسي مثلاً كان منصبغاً ـ بجزء كبير وسمة

بارزة ـ بسجية البخل، الذي كان العرب في جاهليتهم وإسلامهم من أبعد الأمم عنه، فضلاً عمّا جاء الإسلام به من حث على الجود، وإيثار الغير على النفس، ومكارم الأخلاق والشهامة، واستنتج بذلك بعض المتأملين في القرآن والمتدبرين له، حكمة ورود ذم الإسراف والتبذير في القرآن أكثر من ذم البخل، حتى ورد في ذم التبذير من الكلام القوي العنيف اللاذع ما لم يرد في ذم البخل، فقد قال الله تعالى: ﴿**إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين**﴾[1] وذلك لأن البخل لم يكن من سجايا العرب، ولا يتفق مع طبيعتهم الأصيلة، ولم تكن حاجة إلى التشنيع عليه، واستهجانه لهذا القدر.

ومن قرأ كتـاب الأذكياء للإمام الحافظ ابن الجوزي، وبابه الخاص بفطن المتطفلين، استنتج أنه كان للمتطفلين والعيارين دولة وصولة من هذه العصور الذهبية، مع أن ذلك كان من الحوادث النادرة التي لا يخلو منها عصـر من العصور، قد ضخمها ولونها القصاصون والفكاهيون، «للسمر والتسلية» وإزالة السآمة، وإدخال السرور على المجلس، وحرصاً على التنادر.

وكذلك من اقتصرت دراسته على كتاب حلية الأولياء لأبي نعيم، أو صفـة الصفـوة لابن الجـوزي، أو «إحياء العلوم» للغزالي، أو كتب في الزهد، وأخبار الزهاد لشيخ الإسلام عبدالله بن المبارك وغيره، استطاع أن يصور للقارىء، الجانب المشرق الرباني من المجتمع الإسلامي وحده، ويعطي انطباعاً للقارىء، إن المجتمع الإسلامي في بغداد وفي العواصم الإسلامية كان مجتمعاً ـ مائة في المائة ـ متبتلاً زاهداً، مقبلاً على الآخرة بالكلبة، عزوفاً عن اللذات والشهوات، مع أنه كان يوجد كل هذا بنسب

---

(١) سورة الإسراء آية: ٢٧.

مختلفة، ولكن القضية قضية التناسب، وقضية المقارنة العاداة، وتجريد الفكر والقلم عن الخضوع ـ وبالأصح إخضاع الحوادث والمادة التاريخية ـ لنزعة خاصة أو أغراض غامضة أحياناً، واضحة أخرى.

ثم إن عملية الكتابة والتأليف في تراجم الرجال أو تاريخ عهد أو حضارة، أو دين ودعوة، أو حركة وفلسفة، لا تنتهي في فترة زمنية أو مدرسة تأليفية، فلا تزال هنالك حلقات مفقودة طوال قرون، يعثر عليها فجأة، أو مطمورة في ركام من التفاصيل والجزئيات، يفض عنها الغبار الذي تراكم عليها، أو الأنقاض التي غطتها، فلا بد من مواصلة البحث والهمة عالية، والثقة بوجود الجديد المجهول، والطريف المغمور، في المكتبة العربية الإسلامية، التي هي من أغنى المكتبات وأوسعها، فيها كتب أو مخطوطات لم ترَ ضوء الشمس، ولم تصل إليها يد متناول، وبذلك تقدمت الثقافات، واكتشفت الحقائق الجديدة، وتغيرت الآراء والنظريات وأصلحت الأخطاء، وأُنصفت دعوات وحركات، وأسر وشخصيات، أو مجتمعات أو حضارات، ولا تزال المكتبات في الشرق والغرب تطلع بالجديد المجهول الذي كان يتسامع به علماء ذلك الفن، ولا يجدونه فلا بد من الإفادة من ذلك.

ترجع الحكاية إلى الثلاثينات الأولى من القرن الميلادي الجاري، حين أسند إلى الكاتب ـ مع ما أسند إليه من دروس في التفسير والحديث واللغة والأدب ـ تدريس كتاب «تاريخ الأدب العربي» للأستاذ أحمد حسن الزيات فكان ذلك هو الكتاب الحديث الأحدث في موضوعه، وكان كتاباً له قيمة أدبية موضوعية، واشتغل الكاتب بتدريسه في صف من صفوف دار العلوم التابعة لندوة العلماء عدة سنين، هذا مع اطلاع سابق على كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» لجرجي زيدان، وغيره من كتب ألفت في هذا

الموضوع، فكان مع تقديره لهذا الكتاب الذي جمع بين بحث رصين، واختيار موفق للنماذج الشعرية والنثرية، وكتابة أدبية في أسلوب عربي عصري جميل، يشعر بحاجة إلى تأليف جديد في تاريخ الأدب العربي يحتوي على مادة جديدة وزيادات تستخرج مما كتب في تاريخ الأدب والأدباء والشعر والشعراء، من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث أصالة، ما لم يكتب في هذا الموضوع بالتحديد، ولكنه يتصل به بنسب قريب أو بعيد، أو لا يتصل به أصلاً ولكنه يفاجيء القاريء والباحث بجوانب جديدة، أو يجعله يتأمل فيما آمن به واقتنع من نظريات وآراء في منازل الأدباء والشعراء، والنزعات التي كانت تسود عصرهم وبيئتهم، وتعمل عملها في شعرهم وتفكيرهم.

وكنت أحب أن أتفرغ لهذا العمل وأغامر بنفسي في هذه الرحلة الطويلة المثيرة لكثير من الاستغراب والاستنكار، وأعطي بعض الأقطار التي تكونت فيها مدرسة أدبية شعرية نقدية جديدة، ومثلت دوراً خاصاً في تاريخ الأدب والشعر، والبحث والتحقيق، والمعاجم والشروح وشرح المصطلحات العلمية وعلم البلاغة، أخص منها شبه القارة الهندية التي انتهت إليها رئاسة بعض العلوم الدينية والأدبية، بعد القرن الثامن الهجري بصفة عامة وهجوم التتار على الشرق البعيد الذي كان موطن العلوم ومركز الدراسات الإسلامية والشرق العربي بما فيه العراق ومصر والشام بصفة خاصة، فقد أغفل ذلك أكثر المؤرخين للثقافة الإسلامية والأدب والشعر، لا عن عصبية جنسية، أو نزعة سياسية، ولكن لقلة وجود المصادر العربية في هذا الموضوع[1]، و لكن صرفت عنه صوارف منها أعماله التأليفية في

(١) وذلك الذي حمل العلامة السيد عبد الحي الحسني (م١٣٤١) والد كاتب هذه السطور، على أن يؤلف كتابه الكبير «الثقافة الإسلامية في الهند» الذي لا يزال =

تعليم اللغة والأدب في بلاد كالهند، منها سلسلة «قصص النبيين للأطفال» و«القـراءة الـراشـدة» وكتاب «مختارات من الأدب العربي» ومنها أنه كان يستعظم هذا العمل ويعتبره عملاً مجمعياً، موسوعياً يقوم به مجمع علمي أو جماعة من الأساتذة الذين مارسوا تدريس هذه المادة سنين طوالاً، واتسع اطلاعهم على مصادره ومظانه.

ولكن رغم تهيبه لهذا العمل العملاق الكبير كانت فكرة استعراض المكتبة الأدبية العربية ـ النثرية والشعرية ـ من جديد، وإثارة الكنوز الدقيقة فيها، وإدالة الأدب المطبوع النابع من أعماق القلب أو العقيدة الراسخة، والفكـرة القـاهـرة، والمعبـر عن ضمير حر سليم، من الأدب المصنـوع المتكلف ـ إذا لم نقـل المحتـرف الانتهـازي ـ وإعطاءه حقه من العناية والتقليد، والإجلال والتقدير، كانت تنتابه وتتردد في خاطره، فيكتب مقالاً لمجلة اللغـة العـربية، مجلة «المجمع العلمي العربي»[1] بدمشق حين اختير الكـاتب عضواً مراسلاً فيه سنة ١٩٥٧م بعنوان: «نظرة جديدة إلى التـراث الأدبي العـربي» وقد استرعى هذا المقال انتباه المعنيين بالأدب وعـرضـه من جديد، وإعـداد البحـوث العلمية فيه، وأولـوه من التقـدير والاهتمام ما لم يكن يتوقعهما كاتب المقال.

ولم تزل فكـرة وضـع كتاب جديد أو سلسلة كتب في تاريخ الأدب العربي في مختلف الأدوار، ومختلف الأقطار، تراود خاطر الكاتب وتتردد

= المرجع الوحيد لإنتاج علماء الهند العلمي الديني والأدبي بعد دخول الإسلام في هذه البلاد إلى وفاة المؤلف وقد صدرت له طبعتان من مجمع اللغة العربية في دمشق.

(١) مجمع اللغة العربية حالياً.

بين حين وآخر، ولعل هذه العملية الفنية كانت تتأخر ولا تتحقق أصلاً، لعلو سن الكاتب وانصرافه إلى مجالات أخرى من التأليف والدعوة ومسؤوليات نيطت به في بلاده وخارج بلاده، ولكن أراد الله أن تناط هذه العملية التحقيقية البحثية التي هي في صميم تعليم اللغة العربية وآدابها بندوة العلماء، التي كان لها شرف الدعوة إلى تعليم اللغة العربية، على الطريقة القويمة الصحيحة، ودراستها كلغة حية، نامية دافقة بالقوة والحيوية تقضي حاجات النفس كما هي تقضي حاجات العصر، وأن تكون مكتفية في تعليم تاريخ الأدب العربي، كما كانت مكتفية في عدد من أقسام العلوم والمجالات العلمية والتعليمية.

فكانت للكاتب مفاجأة سارة حين علم أن أستاذين بارزين من أساتذة جامعة ندوة العلماء، وهما الأستاذ محمد الرابع الندوي والأستاذ واضح رشيد الندوي، قد تكفلا بوضع منهج دراسي، وتأليف سلسلة من كتب في تاريخ الأدب العربي، واستقل الأستاذ واضح رشيد الندوي بقسم العصر الجاهلي من تاريخ الأدب العربي، وقرر الاستمرار في إتمام هذه السلسلة إلى أن تصل إلى الدور المعاصر، وإلى إبراز قسط الشبه القارة الهندية في إثراء المكتبة العربية الأدبية والعلمية، ومعطياتها في بعض المجالات والميادين وبذلك تكمل هذه السلسلة الذهبية بإذن الله تاريخياً وجغرافياً، وشمولاً واحتواءً، وقد ساعدهما على ذلك إلمامهما باللغة الفارسية والإنجليزية، فضلاً عن الأردية لغة الهند العلمية الدينية، وإطلاعهما على المصادر الحديثة في تاريخ العلوم والآداب، والنظريات العصرية، وزيادة على ذلك النظرة الإسلامية البعيدة عن تقديس الغرب والاعتماد عليه الاعتماد الزائد والتطفل على كتابات المستشرقين، وإعطائهم ما لا يستحقونه من التفخيم والتقدير، والنقل والتقليد.

وأخيراً نسأل الله تعالى جاهدين مخلصين التوفيق لإتمام هذا العمل الجليل،وأن يمد في عمرهما ويأخذ بيدهما لينتهيا بهذا العمل إلى غاية سديدة رشيدة، سليمـة كريمـة، وأن يكتب التوفيق لدور التعليم العربي والـديني في شبـه القـارة للانتفـاع بمجهـود بعض زملائهم، فالمدارس والجـامعات الدينية العربية كلها، أسرة واحدة، والعاملون فيها زملاء في الوصول إلى غاية واحدة. والله ولي التوفيق.

الفهرس